صباح الخير يا أحبّة

ISBN: 978-605-06739-7-5

عنوان الكتاب: صباح الخير يا أحبّة -سيرة ناقصة-

اسم المؤلف: دلير يوسف

الطبعة الأولى: ٢٠٢٠

صورة الغلاف والهوية البصرية: يسر أفغاني

دار موزاييك للدراسات والنشر

الفاتح -اسطنبول -تركيا.

E-mail: rameta12009@hotmail.com

لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال من دون إذن خطي مسبق من الناشر.

صباح الخير يا أحبّة

-سيرة ناقصة-

دلير يوسف

أمّا أنا، فأقول لاسمي: أَعطني
ما ضاع من حُرّيتي.
محمود درويش

في داخلنا يوجد شيء لا اسم له، إنه من نكون في الحقيقة.
جوزيه ساراماغو

مقدمة

دال لام ياء راء

اسمي دلير. دال لام ياء راء. دلير، هكذا بكلّ بساطة. لا حروف معقدة ولا حروف غير متناسبة ولا حروف صعبة النطق. معنى اسم دلير هذا كما جاء في قاموس معاني الأسماء: اسمُ علم مذكّر كرديّ معناه الشجاع، وهو كذلك بالفارسيّة.

سمّاني أهلي دلير، أو بالأحرى سمّاني جدّي الملّا محمد بعد خلاف بين أبويّ على اسم ابنهما الثالث، فبعد اسم الابن الأول الكردي شيار والثاني العربي بشار كان الاختيار صعبًا حين جاء دوري. أبي أراد تسميتي زنار، وهو اسم كردي يعني الصخرة البارزة في أعلى الجبل. سجّلني كذلك في دائرة النفوس وعلى دفتر العائلة. لم تقبل أمي. أمي أرادت أن تسميني يسار، تأثرًا بشيوعيتها ويساريّة العائلة ككلّ. شطب موظف دائرة الأحوال المدنيّة، بخط قلم أحمر، اسم زنار على دفتر العائلة وكتب يسار. لم يقبل أبي. اختلف الزوجان.

قال لهما جدي: أعطوه اسمًا آخر، سمّوه دلير. دلير كان شاعرًا كرديًا عاش قبل ثلاثة آلاف سنة. أحبّ الزوجان وقع الاسم على أُذنيهما. طلبا من الموظف استعمال قلمه الأحمر مرة أخرى

وشطب اسم يسار من صفحتي الخاصة في دفتر العائلة وكتابة اسم دلير فوقه. هكذا تمّت تسميتي.

ولدتُ يوم الأحد في مستشفى الزهراوي في حيّ القصاع الدمشقي. كانت الطبيبة صديقة والدي الطبيب. قال أبي لزوجته إنّها طبيبة ممتازة وتعمل في هذا المستشفى. هكذا ولدتُ من دون عذابات في المخاض ومن دون مفاجآت. بقيتُ من دون اسم لأسابيع طويلة لا يعرفون بأي اسم ينادونني، إلى أن استقرَّ بهم الحال على اسمي هذا.

بعض أفراد عائلتي ينادونني «دِلو»، جدتي تقول «دِلْدِلْ» وآخرون يقولون «أبو الدل» وألقاب أخرى ظلّت تلاحقني في البيت. في الحارة ومن ثم المدرسة كان شيءٌ آخر ينتظرني.

عادةً يلفظ الأكراد أو المنحدرون من أصول كرديّة الاسم بصورة صحيحة أو أشبه بالصحيحة، أما غير الأكراد فيحتارون في نسب الاسم إلى دين أو ملّة. في دمشق لم يكن ترف لفظ الاسم صحيحًا، متاحًا. الأطفال في مدرستي كانوا ينادونني بأسماء مختلفة لا علاقة لها بإسمي. ذوو الأصول الدمشقيّة مثلًا كانوا يضمّون الحرف الأول، أو يضيفون حرف الواو له فيصبح الاسم لديهم دولير. هذا أشدّ أسمائي كرهًا.

في أماكن خارج المدرسة حيث لا يتكرر الاسم كثيرًا في قوائم الطلاب، في الشارع والمحال التجاريّة والأنديّة الرياضيّة، كان عليّ أن أعيد لفظ اسمي عشر مرات على الأقل، في كلّ مرة أُسأل عنه، ومن ثمّ أبدأ بالشرح. في كلّ مرة كنت أفكر: لو كان اسمي محمد مثلًا لكانت هذه الدقائق التي أستغرقُها في شرح اسمي ملكًا لي.

لي مشكلات لا تحصى مع المعلمين والموجهين والعاملين في المدارس والجامعات بسبب اسمي. فتارة أُحشَرُ مع فئة المسيحيين ومرة مع الأجانب، وكثيرًا من المرات مع غريبي الأطوار، ففضلًا عن اسمي الغريب كان لي شعر أجعد مختلف عن الآخرين وكنتُ أحمل كتبًا من خارج المنهاج المدرسي معي في المدرسة، ولا ألفظُ حرف السين كما يلفظه الآخرون. مرة قال لي الموجّه المدرسي: من أين جلبت اسمك هذا؟ أهو مشتق من الفعل الثلاثي دَلَرَ؟ لا أذكر أنّني سمعت هذا الفعل من قبل.

كلّ يوم كنت أواجه طفلًا/ فتىً يسخر من اسمي، أتعارك معهم في مرات عديدة وفي مرات أخرى أحمل السخريّة في قلبي وأمشي. كانوا يقولون أحياناً كلير، في تشبيه بحلوى الكلير فرنسيّة الأصل، وهي ضرب من ضروب الحلوى إصبعيّة الشكل. لم

أتناول هذه الحلوى حتى أصبحت طالبًا جامعيًا كردِّ فعلٍ على هذا التشبيه السخريّة.

كانوا يقولون في أحيانٍ أخرى بلير، في تشبيه برئيس الوزراء البريطاني السابق طوني بلير الشهير بحربه المشتركة مع شريكه جورج بوش الابن، الأمريكي الجمهوري، على بلاد العراق. كانوا يقولون أيضًا دلّ إير، في إحالة إلى العضو الذكري. وكم تمنيت سرًا أن يشبّه أحدهم، يومًا ما، اسمي، بـموليير الشاعر المسرحي، أو بودلير الشاعر. كنت أقول لنفسي ألا يشبه اسم دلير بودلير أكثر من شبهه بالإير. كم كنتُ حزينًا!

كنتُ أكره لفظ اسمي حتى اليوم الذي وقعتُ فيه على قصيدة للمتنبي، مالئ الدنيا وشاغل الناس، يقول في مطلعها «كدَعْواكِ كُلٌّ يَدّعي صِحّةَ العقلِ». في هذه القصيدة يذكر المتنبي قائدًا كرديًا وصل بإمارته إلى حدود سيناء قادمًا من جبال إيران فيقول في بعض الأبيات:

فتَمْليكُ دِلّيرٍ وَتَعْظيـمُ قَدْرِهِ/ شَهـيدٌ بوَحْدانِيّةِ الله وَالعَـدْلِ

وَمَا دامَ دِلّيرٌ يَهُزّ حُسَـامَهُ/ فَلا نَابَ في الدّنْيَا لَليثٍ وَلا شِبلِ

وَمَا دامَ دِلّيرٌ يُقَلّـبُ كَفَّهُ/ فَلا خلقَ من دعوَى المكارِم في حِلّ

يا إلهي، المتنبي عرفَ اسمي قديمًا. لماذا لا يعرفه العرب الآن؟ لماذا لا يعرفون نطقه وواحد من أعظم شعرائهم ذكر الاسم في

ثلاثة أبيات من إحدى قصائده. يكسر المتنبي حرف الدال بينما أُسكنه أنا عند اللفظ، وهو يشدّد اللام وأنا لا أفعل. لكن يبقى الاسم هو هو، وإن اختلف بعض اللفظ.

صار هذا الاسم يؤرقني. أصحّحُ لفظه للناس. أخبرهم عن قصيدة أبي الطيب. أقول لنفسي لعلّ وعسى. كلّ هذا وأنا أعيش في «بلادي» في أرضي وأرض أجدادي. لاحقًا حطَّت رحالي في بلاد بعيدة لا شمس فيها، أعيشُ فيها بعيدًا عن الموت المنتشر في البلاد الأصل.

في بلاد الشام كان الاسم عبئًا أكبر. كلّ يوم أصحّحُ اسمي للناس. أفرحُ كطفل يلعب بالطين حين ينطق أحدهم اسمي صحيحًا حين أذكره أمامه مرة واحدة. أفرحُ لأنّ دقائق جديدة لن تضيع في شرح الاسم وكيفيّة نطقه. أما في بلاد الجرمان حيث أعيش الآن، فإنّ عبء الاسم أكبر من أن تشرحَه بضع كلمات متناثرة.

أكتبُ اسمي بالحروف اللاتينيّة بلغة أهل الإنجليز، فإن كان القارئ نيويوركيًا كان لفظه للاسم صحيحًا، ينطقونه كما أنطقه تقريبًا. أما إن كان ناطق الاسم ألمانيًا أو هولنديًا أو خلاف ذلك من سكان شمال أوروبا، فإنّ لفظ هذا الاسم يختلف من شخص إلى آخر، بعضهم يناديني ديلائير، فأحسب نفسي من بني إسرائيل، وبعضهم الآخر يناديني ديلاير فأظن نفسي جرمانيًا، وهكذا تتالى

الأسماء عليَّ حتى بتُّ أعرف اسمي من غير أن أُنادى بلفظه الصحيح. كلّما قِيلَ اسمٌ يبدأ بحرف الدال عرفتُ أنّ المنادى عليه هو دلير، أي أنا.

أشخاص

سلطانة

عرفتها مذ كنت رضيعًا، كنتُ أراها يوميًا حتى هربتُ من سوريا سنة ٢٠١١. بعد ذلك التاريخ، التقيتُها مرة واحدة فقط. ترتدي سلطانة ثيابها الكرديّة دائمًا، لا أذكر أنني رأيتها بغير هذا الزي؛ ثوبٌ طويل مزركش يغطي كامل الجسد وحجابٌ أبيض. تمشي منتصبة مشدودة الكتفين وكأنّها لا تهتم بعثرات الزمن.

ذاكرتي مرتبطة معها بمدينة دمشق، هي جزء لا يتجزأ من تاريخ هذه المدينة، وإن كانت تنتمي إلى الجزء المخفي غير المكتوب في الكتب وغير المعروف لعامة الناس، لكن سلطانة وأمثالها هم أصل الحكاية ومنبعها.

تشبه نساء الروايات، تشبه أم حسن في رواية باب الشمس لإلياس خوري. هي أم الناس جميعًا. تمشي نحو بيتها، الذي أشرفت على بنائه في منطقة العشوائيات في حارة الأكراد في حيّ ركن الدين، برأس مرفوع، حاملة أكياس الخضر واللحوم، واضعة الخبز على رأسها، شامخة لا شيء يستطيع جرح كبريائها.

تشبه نساء الأفلام، العجائز الذين نقع في حبهم قبل أن نغادر صالة السينما من دون أن ندري كيف. نأخذ وجوههن معنا إلى البيت كأنّنا نعرفهن منذ الأزل.

لأنّها زوجة السياسي الكردي المعروف كانت تتحمل ضربات عناصر المخابرات وجنود الجيش بدلًا عن زوجها الهارب. سلطانة القادمة من شمال البلاد، والتي عاشت انقلابات سوريا في الخمسينات والستينات وحكم الديكتاتور ومن ثم ابنه الذي هَجّر أبناءها وحرمها من دمشقها، ما زالت تضحك حين أحدثها على الهاتف مرة كلّ شهرين أو ثلاثة.

سلطانة امرأة كرديّة قويّة لا تسكتُ عن حق مهما كلفها الأمر على الرغم من لغتها العربيّة المُكَسّرة. مرة قال لها فتى في متجر اللحوم في منطقة الشيخ محي الدين: "لماذا لا تعودين إلى بلادك؟ هناك تستطيعين أن تتحدثي كما تريدين من دون تكسير في اللغة". فقالت له بلغتها العربيّة الصعبة: "هذه بلادي، أنا من حفيدات صلاح الدين. من أنت ومن أين أتيت؟".

حدّثت كلّ الناس بهذه القصة. كانت تعيد تلك الجملة التي قالتها للفتى وتضحك على نفسها وعلى لغتها العربيّة.

سلطانة تعيش في الشام منذ سبعينيات القرن الماضي لكنها كانت دائمًا تقول المثل الكردي: "الشام حلوة كالسكر لكن الوطن أحلى".

وحين أسألها: "أين وطنك؟" تقول: "هنا... هذا البيت هو وطني". "لكن هذا البيت في الشام" أقول بخبث، فتقول: "والشام بلادي". لم أعرف أحدًا أحبّ دمشق الشام بصدق مثلها.

لم تكن تعرف الكثير عن تاريخ الشام المكتوب في الكتب أو ذلك التاريخ الذي نتعلمه في المدارس لكنها كانت تعرف مقامات المدينة جيدًا وتعرف شوارعها وأسواقها وحاراتها ودكاكينها. كانت تشعرك أحيانًا أنّ شوارع دمشق هي امتداد لجسدها.

في الصيف تلتقي صديقاتها النساء في الحديقة العامة وفي أيام الشتاء كانت تلتقيهم في بيتها. كانت محور هذه الجلسات وجامعة النساء والرابط بينهن. كانت صديقة الكلّ تضحك معهم وتبكي معهم.

أقول لها مداعبًا: "سلطانة، كيف حالك؟" تضحك ثم تقول بحب لمن حولها: "قليل الشرف لا يقول يادة". ويادة تعني أمي بالكرديّة. كانت تحبُّ أن تكون أمّنا. كانت تحب أن تكون جامعة الكلّ. كانت تعدد دائمًا أسماء من عاش في بيتها ومن أتم دراسته الجامعيةّ في بيتها ومن أدى خدمته العسكريّة في بيتها.

كانت تحبهم جميعًا كما لو كانوا قد خرجوا من رحمها. وكانت تغضب منهم جميعًا كما لو أنّهم أولادها وبناتها الذين تعبت في

تربيتهم. كانت تفرح لفرحهم وتبكي عند مصائبهم. تحتفظ سلطانة في ذاكرتها بذكريات كلّ من مرّ على بيتها وإن نسيها بعضهم.

اليوم وأنا أجلس في هذه البلاد الباردة البعيدة أفكر في سلطانة وفي ذاكرتها المليئة بأقارب وأبناء وأصدقاء تفرقوا من حولها، مِنهم من هُجّر ومنهم من قُتل، بعضهم يعيش في المنافي وفي مخيمات اللجوء والبعض يقاتل مع المتقاتلين في البلاد والبعض ما زال يكافح من أجل رغيف الخبز وكأس الماء في هذه البلاد الخراب.

أفكر اليوم في سلطانة الوحيدة التي عاشت أكثر من سبعين عامًا في ضجيج حياتها وضجيج حيوات الآخرين من حولها. سلطانة التي فقدت الجزء الأكبر من حياتها برحيل من أحبت. سلطانة العاشقة من دون عشيق. سلطانة التي تحبُّ العالم كله وحيدةٌ اليوم.

الملّا محمد

أتذكّر عروق يديه حين نمتُ مرةً على الأرض البلاط واضعًا رأسي في حضنه. كان يجلس مستندًا إلى حائط شرفة بيته، بيتنا. كان عمرُه قد قارب السبعين وأنا في عمر المراهقة. قالت جدتي يومذاك إنّ أولاده لم يتجرؤوا يومًا على الجلوس بجانبه بهذه الطريقة. قالت إنّنا، نحن أحفاده، مدلّلون، فهو يرقص معنا ويمازحُنا ويرافقنا في الشوارع ويسألنا عن أحوالنا. قالت إنّنا محظوظون وإنّ أولاده، الذين يعيشون بقربه والذين يعيشون بعيدين عنه، يغارون منّا.

كنّا نناديه "يابو"، أي "أبي" بالكرديّة.

كان يستيقظ جدي - وُلد ١٩٣٠ / توفّى ٢٠٠٧ - الملّا محمد نيّو، في الصباح الباكر، يحلق شعر ذقنه، يتناول إفطاره ويتجه إلى دكان الثياب المستعملة الذي يملكه في شارع الثورة. يعود في الظهيرة حاملًا أكياسًا بلاستيكيّة، قد يكون ما بداخلها ثيابًا أو فواكه أو أشياء صغيرة مما يشتريها الأطفالُ عادةً.

يعطينا أكياسه. نأخذ الأكياس متلهفين. نقبّل يديه ونفتحُ الأكياس بسرعة. يبتسم وهو يقول لنا: على مهلكم.

كان في بيتنا، في ذلك الزمان، تلفازٌ قديمٌ بنيٌّ كبير. وكان جدي كلّما مرّ بجانبه يخفض الصوت قليلًا، لا يهتم إن كان الصوت مرتفعًا أم لا. كان يمّدُ يده اليمنى ويُخفض الصوت. مرةً حين سمعناه قادمًا أسكتنا صوت التلفاز. وصل وقام بحركته اللاإراديّة وأخفض الصوت. قال له أحدنا: يابو لم يكن هناك صوت. ابتسم وقال بمحبة وبعربيّة فصيحة: لعنة الله عليكم، كلاب أولاد الكلاب. كان يقولها لنا بِمَدِ حرف البَاء فتصبح كلابا. كان أبي يقول له: ما ذنبي يا والدي إن كانوا هم ملاعين. كنّا نضحك. كان عالمنا في تلك الأيام أجمل، أو هكذا يبدو في ذاكرتي.

يابو هو أكثر الرجال الذين رأيتهم رومنسيّة. يقولون عنه عكس ذلك. يقولون إنّه كان أكثر الرجال قسوة حين كان شابًا. لم أعرف ذلك. أعرفه طيبًا وحنونًا ويحبّ جدتي جدًا. حين استيقظَ بعد إجراء عمليّة القلب كان ينادي الممرضة: سلطانة، سلطانة. هذا اسم جدتي، زوجته وحبيبته. حين كانت تغفو في غرفة التلفاز كان جدي يجلب غطاءً من غرفته ليغطيها به كي لا تبرد. أخي التقط له صورة وهو يفعل ذلك. أذكر أنّه كان يرغب في تقبيلها بشدة في آخر أيامه. كانت ترفض، ربما خجلًا من أحفادها.

جدي كان مستعجلًا دائمًا. إن كان على موعدٍ ما في العاشرة صباحًا كنتَ تراه مستيقظًا في الخامسة. هكذا كان جدي. جدتي

كانت تقول إنّ هذا بسبب عمله السياسي الثوريّ حين كان شابًا. كان ملاحقًا دائمًا، لذا كان دائم الاستعجال.

كان من أوائل السياسيين الأكراد في سوريا في خمسينيات القرن الماضي، وكان من مؤسسي أول حزب سياسي كرديّ في البلاد، كما كانت له صولاته وجولاته في كردستان العراق. كان في بيتنا صورة له مع صديقه جلال الطالباني.

أذكر أنّه كان يطلب مني أن أذهب إلى الدكان من أجل شراء بعض التبغ له. كنت أقول غالبًا: بعد أن ينتهي هذا المسلسل أو بعد أن أنهي وظائفي المدرسيّة. يقول: لا بأس، لستُ مستعجلًا. بعد دقيقتين يقول بصوت عالٍ مسموع: يا الله يا رب، سوف أذهب إلى الدكان لجلب بعض التبغ. كنت أنظر إليه وأقول: هذا استغلال عاطفي، سأذهب الآن. يضحك ويقول: خذ خمس ليرات لك واشترِ ما تريد.

كان جدي يحب التدخين كثيرًا. يجلس على سطح بيتنا المُطل على دمشق ويُدخن. في رمضان، كان يلفُ عشرين سيجارة أو أكثر قبل موعد الإفطار كي يلتهمها بعد أن يتناول القليل من الطعام بعد رفع أذان المغرب.

حين مَرضَ في آخر شهور حياته منعه الأطباء من التدخين. بدأت العائلة بفرض حصار عليه. أنا وأخي وأمي وعمي وأبي

وجدتي. ذات يوم لم يعد يحتمل. توسّل إلينا أن نسمح له بسيجارة. قال لزوجته: سيجارة واحدة لن تقصر في عمري ولن تطيله. هذا الطبيب مجنون. منذ ثلاثة وعشرين يومًا لم أذُقها. هل تعرفين معنى أنّني أدخن منذ أكثر من ستين سنة؟ كان يترجى. جدتي ممتعضة وأمي تبتسم بحُب.

أخذ أخي سيجارة من علبته وأعطاها لجدي. أخذ جدي السيجارة وابتسم جذِلاً. جدتي كانت تراقب بهدوء. سحب جدي الدخان بقوة. قالت جدتي: أنظر كيف تحسنت صحتك بعد أن تركتَ تدخين هذه الملعونة. رد جدي: معك حق، معك حق. أعاد باقي السيجارة لأخي وهو يتمتم: لن أشبع من هذه السيجارة ما دمت حيًا. أمسك بيد زوجته وقال لها إنّه يحبها.

جدي كان رجلًا طيبًا، حلو المعشر، يحبّ زوجته وعائلته وكوردستَانه والمشي لفترات طويلة. كان يأخذني معه أحيانًا. كان جدي يحبني. كنتُ أحبُّ جدي. الآن ابتسم وأنا أتذكر كلّ شيء.

مات يابو في أحد أيام ربيع العام ٢٠٠٧. مات في فترة الظهيرة. أنا وأخي كنّا في غرفتنا ندرس. عمي في غرفته يكتب. أمي في المطبخ تعدّ بعض الطعام. جدّتي كانت تعتني به، لم يكن بمقدوره الاعتناء بنفسه مُذ مَرض. سمعنا صوت جدتي تنادينا. ركضنا

إليها. كان جَدّي مُمددًا أمامها. عمي حاول التأكد من نبضه. كان قد فارق الحياة. انهار أخي باكيًا وركض نحو الشرفة.

نوّار

في اليوم الذي مات فيه نوّار....

رنّ هاتف البيت في الساعة الثانية ظهرًا، قالت لي امرأة ما على الجانب الآخر إنّ طفلًا ما كُسرت يده في حادث سيارة على الشارع العام، وهي تعتقد أنّ الطفل هو أخي الصغير نوّار. قلت ذلك لجدتي التي كانت تعدّ طعام الإفطار، كان الوقت صيامًا. قالت لي: اذهب واشترِ بعض الفول ليزيّن مائدة الإفطار، مثل كلّ يوم، وفي طريقك استطلع النبأ.

ذهبت إلى مكان الحادثة ولم أرَ شيئًا. قلت لجدتي وعميّ، الموجودَين في البيت وقتئذٍ: لم أجد شيئًا يثير الانتباه. رنّ الهاتف مرّة أخرى، قالت المرأة نفسها إنّ نوّار موجود في مستشفى ابن النفيس القريب من بيتنا الملاصق للجبل الدمشقي العتيق.

التاريخ هو السادس من رمضان الموافق لليوم التاسع من شهر تشرين الأول سنة ٢٠٠٥ ونوّار يبلغ من العمر أحد عشر عامًا وأربعة عشرة يومًا. ذهبت جدتي وعمي إلى مستشفى ابن النفيس بسرعة وبقيتُ أنا في البيت محاولًا الاتصال بوالدي الطبيب في

مستشفى العباسيين. لم أكن أملك حينها هاتفًا محمولًا. بعد عدّة محاولات استطعتُ إخباره باكيًا بوجود نوّار في المستشفى.

لم أجد محفظة نقودي حينها، لم أرَها وعيناي مغشيّتان بالدمع. لم أستطعْ استئجار سيارة من أجل الوصول إلى المستشفى بشكل أسرع. قطعتُ المسافة ركضًا. وصلت إلى الباحة الأماميّة للمستشفى. سيارة مليئة بالجنود المُتأهبين تنتظر وهذا منظر غريب هنا. جدتي بثيابها الكرديّة المميزة تبكي وتندب والناس متحلقون حولها. سألتها: أين نوار. قالت إنّها، لا تعرف، عمي في الداخل يسأل عنه. خرج عمي بعد دقائق من الداخل وعيناه مغشيتان بالدمع. قال إنّ نوّار في العناية المشدّدة وهو بخير. كان يكذب. وصل عميّ الآخر. وشوَشَهُ عمي، الذي يعرف، بشيء ما. لم يحرك ساكنًا. لاحقًا عرفنا أنّهم قالوا لعمي إنّ نوّار في ثلاجة المستشفى وقد فارق الحياة فور اصطدام السيارة به، وأرادوا منه تأكيد عودة الجثة إلى نوّار، فلم يتجرأ عمي على رؤية الجسد المسجى على الطاولة الحديد. طلب من أخيه الآخر فعل ذلك فلم يتجرأ كذلك. كانوا ينتظرون قدوم والدي؛ "أبو الطفل الميت".

وصل أبي بعد دقائق بدت طويلة لنا. قبل وصوله كان أهل الحارة يصلون تباعًا. وصل جدي السبعيني. وصل شباب الحارة المستعدون للمساعدة. لسبب ما بقي مجهولًا توجّه سائق سيارة

التكسي التي تقلّ أبي إلى مدخل برادات الموتى البعيد مسافة خمسين مترًا عن مدخل الإسعاف حيث كنّا جميعًا. لم ننتبه لوصول الأب حتى اللحظة التي سمعنا فيها صرخته التي شقّت السماء. كان قد رأى وجه ابنه.

كنت جالسًا مع جدي وجدتي على كرسي خشبي وسط الباحة المُشجّرة. أتى عمي الكبير وقال بهدوء يُحسد عليه: فليرحمه الله. اتجه أبي نحونا وهو محاط برجال نعرف بعضَهم ولا نعرف معظمهم. كان يبكي. عندما رآني احتضنني بقوة وصرنا نبكي سويّة. كان يهمس في أذني: نوّار مات يا بابا نوّار مات.

امتلَأت باحة المستشفى بالرجال. طلب أعمامي مني الذهاب مع جدي وجدتي إلى البيت والانتظار هناك. في الشارع أمام البيت سألني أحد الأطفال الصغار وهو يضحك ويقفز: لماذا تبكي؟ صفعته وأكملت الصعود إلى بيتنا في الطابق الثالث غاضبًا باكيًا. نادم أنا اليوم على تلك الصفعة. أغلقت على نفسي باب الغرفة وصرت أبكي. كان الجيران يتوافدون على البيت تباعًا ويحاولون إخراجي من الغرفة من دون جدوى. جربت أن أصلي. لا أعرف كيف أصلي. كنت أبكي وأبكي وأبكي إلى أن أثقل الدمع جفوني فغفوت.

أيقظني أخي الذي يكبرني بأربع سنوات بعد ساعات قليلة. عرفت أنّه ذهب إلى المستشفى أولًا وكان كالمجنون هناك. أرسلَه أبي إلى البيت ريثما يُنهي هو استكمال أوراق الوفاة القانونيّة. في وقت الإفطار أخذونا إلى بيت جيراننا في الطابق الثاني. لم يكن في بيتنا طعام، هناك تناولنا بضع لقيمات لكن معظمنا لم يأكل.

بعد الإفطار امتلأ بيتنا الكبير بعشرات الأصدقاء والجيران والأحباب. أذكر تفاصيل ذلك اليوم كحلم بعيد. جدتي وقعت مغميًا عليها. جدي عرف بأنّ أخي يدخن ولم يفعل شيئًا سوى أن أخذ منه سيجارة ليدخّنا سويّة. أبي واقفٌ كجبل يتلقى العزاء. أنا وأخي وعمي الصغير نحضّر القهوة المرّة لتقديمها للمعزين. وصل شرطيان ليتأكدا من أقوال أبي. لم أفهم ما حدث فشرح أبي الأمر لاحقًا: السيارة التي دهست نوّار كانت سيارة نقل جنود عسكريّة، لذلك كان عناصر من الشرطة والجيش في المستشفى متأهبين، كانوا يخافون أن تحصل مشكلة كبيرة لأنّ القتيل هو طفل كردي والقاتل هو جندي في الجيش. سألوا والدي في المستشفى إن كان يريد رفع دعوة قضائيّة فأجاب بالنفي وبأنّ الأمر كلّه قضاء وقدر بعد أن عرف بتفاصيل الحادث.

تفاصيل الحادث تقول: كان أخي الصغير ورفاقه يرغبون في الذهاب إلى الحديقة العامة، التي تقع بمحاذاة الشارع الرئيسي، من

أجل لعب كرة القدم. كانت الكرة مع نوّار. لسبب ما تدحرجت الكرة أرضًا في الشارع المنحدر الواصل إلى الشارع الرئيسي. ركض نوار لاحقًا بالكرة التي توقفت في منتصف الشارع فدهسته سيارة الجيش الكبيرة غير المجهزة بمكابح قادرة على التوقف فورًا. نزل السائق وحمل نوّار الذي مات من فوره وصار يركض ويصيح كالمجنون من دون أن يعرف ما عليه فعله. بعض المارة وأصحاب المحال التجاريّة أوقفوا سيارة أجرة ووضعوه مع نوّار فيها ليتوجهوا نحو المستشفى القريب. هناك وضعوا الطفل الصغير في براد المستشفى والجندي السائق في السجن الخاص بمركز شرطة المستشفى.

لتكتمل مأساة ذلك اليوم مات السائق بسكتة قلبيّة. لم يره أحد منّا ولم نعرفه. والده وأخوه اتصلوا بأبي وطلبوا زيارته بعد شهر. رفض أبي استقبالهم في البيت وقابلهم في مقهى الروضة. كانوا يريدون دفع ديّة الميت لأنّ ابنهم قتل ابننا. رفض أبي وقال: كان قضاء وقدر، مات ابني ومات ابنك ونحن في الحزن سواء. لم يستقبلهم أبي في البيت ولم يقل لنا أسماءهم ولا حتى اسم القرية التي أتوا منها. قال: لا أعرف ما سيحدث في المستقبل، لا أريد لأولادي أن يفكروا بالثأر أو أن يقولوا ذات يوم هؤلاء الناس قتلوا

أخانا أو أن يقولوا هذه قرية قاتل نوّار. كان أبي حكيمًا في ذلك الموقف.

أمي لم تكن في الصورة حتى الآن. كانت حينها في العراق تزور مدينتها وأهلها. يوم الحادث اتصل والدي بزوج أختها وطلب منه إرسال أمي بسيارة خاصة من فوره من دون أن يقول لها شيئًا، وهذا ما حدث. كنتُ وأخي وصديقه ننتظر أمي عند باب المبنى حين جاء أصدقاء نوار من المدرسة. سألوني: "صحيح ما سمعنا". "صحيح" قلت لهم. سألني آخر: "أين نوّار؟". أجبته بغباء من دون أن أمهد الأمر لهم "نوّار مات". بكى هؤلاء الأطفال صديقهم بحرقة.

وصلت أمي بعد الظهر فاستقبلها طفل صغير من أولاد الحارة قائلًا: "خالة خالة خالة... نوّار مات". سقطت أمي أرضًا.

أقيم عزاء نوّار في البيت المقابل لبيتنا عند أحد الجيران الذي قال لأبي: "أنت متل ابني ونوّار كأنّه واحد من أحفادي، العزا ما بيصير غير عندي بالبيت". وهكذا كان. أولاد الحارة اهتموا بكلّ شيء من التحضير إلى تقديم القهوة إلى ما يطرأ من أمور أثناء أيام العزاء وصولًا إلى مواساتنا. كانوا عائلتنا الكبيرة.

مضت سنوات كثيرة طويلة على رحيل نوّار لكنه ما زال كالطيف الجميل يزورنا كلّ حين. بقي نوّار جميلًا مثلما كان. لم

تتغير صورته مع تغير السنين. بقي كما هو، حلوًا كقطعة سكر، دافئًا مثل كأس من الشاي في ليلة باردة. بقي نوّار في ذاكرتي مثلما كان؛ نلعب سويّة ونتعارك ونشاهد كرة القدم ونشجّع البرازيل سويّة. بقي هكذا، مفتتحًا قائمة القبور التي أزرعها في قلبي.

في عيد ميلاد نوار الثالث والعشرين، بعد رحيله باثني عشر عامًا، كتبت أُمّي، أمّه، الشاعرة العراقيّة خديجة السعدي على صفحتها الشخصيّة في موقع فيسبوك قصيدة صغيرة تقول:

نوّار... برعمٌ اغتاله الموت فجأة.

وأنا في منفاي البعيد أُسائلُ الترابَ عن جسدِكَ

والخريفَ عن جهاتِ الريح.

أسائلُ الروحَ عن صمتِ الأمواتِ

وصمتُ نوّار رهيب!

الجدّة نورا

والجدّة نورا هي أم جدتي، أو جدة أبي إن شئتم، وقد ماتت منذ حوالي عشر سنوات عن عمر يناهز المئة سنة، وهو عمر افترضناه، إذ أنّنا لم نكن نعرف مواليد الجدّة الحقيقية، ولا حتى هي نفسها تعرف. كنّا نناديها "بِيْرِيْهْ نُوْرِيْ" أي الجدّة نورا بالكرديّة، اللغة التي لم تعرف سواها.

كانت ترتدي ثيابها الكرديّة المزركشة الثقيلة طوال الوقت، حتى أثناء النوم. قال لها أخي ذات صيف: ألا تشعرين بالاختناق في هذه الثياب ودرجة الحرارة تتجاوز الأربعين. نفت وقالت بفخر إنّ أحدًا لم يرَ جسدها من قبل، ولا حتى زوجها، لذلك فهي لن تنزع ثيابها بعد أن بلغ العمر بها أرذله. ضحكنا وقلنا كيف لم يرَ زوجك جسدك وأنت أم خمسة أطفال هل أنت مريم العذراء. أشاحت بوجهها غاضبة منّا. فأجابت ابنتها، جدتي، قائلة: في زمانهم وفي قراهم لم يكن المرء يكشف عن كامل جسده أمام شريكه، ولم يكن هناك كهرباء، لذلك لم يكن الشريك يرى شيئًا في ذلك الظلام الدامس.

كانت الجدة نورا مؤمنة تصلي وتصوم حتى آخر أيام عمرها، وكانت لها ترنيمة دينيّة ترددها عشرات المرات في اليوم تتغنى بنبي الإسلام محمد. كانت تقول إنّها أخذت هذه الترنيمة عن أمها التي أخذتها عن أمها وهكذا توالت. لا أذكر اليوم سوى بداية هذه الترنيمة والتي تقول ترجمتها العربية:

"هو محمد العربي القرشي الهاشمي

عيونه سوداء وجبينه عالٍ

لون بشرته بيضاء مائلة للأحمر

يقف تحت أشعة الشمس

ومن نوره أعطى الأرض سنته

ولد في مكة

وفيها أصبح نبي الله عليه الصلاة والسلام"

في سنواتها الأخيرة كان لجدتنا نورا عادة النوم من الساعة الثامنة مساءً وحتى الثامنة صباحًا. أحيانًا كنّا نسمع صوت شخيرها العالي من الغرفة المجاورة. كنّا نداعبها كلّ صباح ونقول لها: كيف كانت ليلتك يا جدتي؟ فتقول إنّ عيونها لم تغمض وقد بقيت صاحية طوال الليل. فنقول بخبث: كيف ذلك يا جدتي؟ كنا نسمع شخيرك من الغرفة المجاورة. فتقسم إنّها لم تنم. وهكذا يدور الحوار بيننا إلى أن يأتي أحد الكبار ويمنعنا من مواصلة خبثنا مع

العجائز. في هذه الأيام حين تقول لي حبيبتي الألمانيّة أنّها لم تنم جيدًا الليلة السابقة أقول لها كذلك كانت تفعل "بِيْرِيْهْ نُوْرِيْ" وأضحك بخبث متذكرًا أيام قديمة في البلاد التي حُرمنا منها.

لنورا ثلاثة أولاد وابنتين، زوجها مات قبلها بزمن طويل وتكفلت هي بتربيّة الأطفال. عائلتها الكبيرة قُسمّت بين سوريا وتركيا بعد إنشاء الحدود -كان الحد الفاصل بين البلدين هو خط السكة الحديديّة التي أنشأته شركة ألمانية فكان يقال عن الأكراد الذين يعيشون في بلدات ومدن تركيّة "سكان فوق الخط" وعن الأكراد الذين يعيشون في بلدات ومدن سوريّة "سكان تحت الخط"- لذلك لم تجتمع الجدّة مع عائلتها الكاملة أبدًا، وقد حدث لقاؤها الأول مع أحد أقربائها الذين يعيشون فوق الخط في سنوات حياتها الأخيرة، حين لم تعد تعرف الأشياء والأشخاص من حولها.

لم تكن جدتنا الأميّة تعرف أي كلمة أخرى بلغة غير الكرديّة. حياتها كانت كرديّة مئة بالمئة. وخلال الحرب الأمريكيّة-البريطانيّة على العراق سنة ٢٠٠٣ كنّا في بيتنا نتابع الأخبار طوال الوقت، وهي، كان يصيبها الملّل لعدم فهما شيئًا مما يقال، لكنها وبعد أيام طويلة تعلمت كلمتين عربيتين وكانت تفتخر بأنّها، وأخيرًا، تعلّمت العربيّة. كانت تقول بالكرديّة: يقولون في الأخبار أنّ هنالك "قتلى وجرحى". تلفظ "قتلى وجرحى" بعربيّة مفخمة

وبسعادة طفل تعلّم النطق لتوّه. ماتت جدتي وهي لم تتعلم من العربيّة سوى كلمتي "قتلى" و"جرحى". يا للأسى!

ماتت أم صالح بعد حضورها عرس أحد أحفادها بأيام قليلة. أكملت عمرها وعاصرت أحداث كبيرة في القرن الماضي وبدايات القرن الجاري، لكنها لم تعرف شيئًا عن العالم، لم تعرف الكتل الاشتراكيّة والرأسماليّة، لم تقرأ لتولستوي ونيتشه، لم تعرف معنى التهجير ولم تسمع عن الحرب الباردة، لم تعرف صراعات السلطة في الشرق الأوسط ولم تعرف السينما ولا المسرح ولا الفرق الموسيقيّة. عاشت عمرها الطويل بين قريتها ومدينة القامشلي وفي أوقات قصيرة في دمشق. عالمها كان محصورًا بعائلتها ومعارفها وأدائها الصلاة في أوقاتها.

أذكرها كثيرًا هذه الأيام. أتذكر أنّني لم أكن أحبها في حياتها، ولم أكن أكرهها، كانت مشاعري حياديّة تجاه العجوز، جدة أبي، أما اليوم فأتذكر قصصها الصغيرة كحلم بعيد وأفكر بأنّني أحبّ هذه المرأة.

آمال الراعي

حين أفكر بأبطالي تتقافز أمامي صور سليم بركات والياس خوري ومروان البرغوثي والظاهرة البرازيليّة رونالدو والكثيرين غيرهم، لكن صورة آمال الراعي تحتل موقع الصدارة بين مجموع صور أبطالي الشخصيين.

كانت المرة الأولى التي أدخل فيها إلى مخيم فلسطيني في لبنان حين رأيتها في الشارع المدخل الضيق الذي يوصلنا إلى تجمع سعيد غواش، والتجمع هذا ملاصق لتجمع الداعوق المتداخل مع مخيم صبرا المجاور لمخيم شاتيلا في بيروت، وهذه التجمعات والمخيمات هي أكبر تجمع للفلسطينيين في العاصمة اللبنانيّة.

سمراء ذات سمرة حلوة، نحيلة كأن لا لحم يكسو عظامها، طويلة كأنّها تعانق نخل السماء. تبتسم وتصيح بالناس في الوقت نفسه. مشت معنا في دروب المخيم الضيقة حتى وصلنا بيتها الصغير حيث وُلدت، وما زالت تعيش. كنّا بضعة شباب يريدون أن يساعدوا السوريين اللاجئين حديثًا إلى بيروت.

بقي بيتها مركزنا في المخيم سنة ونصف السنة، وهي المدة التي قضيتها في بيروت. كانت تساعدنا في كلّ شيء، وتساعد الناس

في كلّ شيء. كان عملها تطوعيًا؛ تذهب إلى المستشفيات مع النساء اللاتي على وشك الولادة، تسجل أسماء العائلات الجديدة القادمة إلى المخيم لتسهيل إيصال المعونات لهم، تبحث عن بيوت للسكن وأماكن للإيواء، تشتري الأدوية من مالها الخاص حين يحتاج مريض إلى دواء، ترسل أولادها في كلّ الاتجاهات لخدمة بشر لا تعرفهم، وكلّ ذلك من دون مقابل مادي.

أكسبتها شهرتها بين اللاجئين والعاملين في الجمعيات المدنيّة والأهليّة، الجديدة منها والقديمة، كأبرز الناشطين المجتمعيين في مخيمات بيروت عداوة بعض الناس ومحبة معظمهم. هي لم تكن تلتفت إلى كلّ هذا، كان همّها الوحيد هو أن تساعد الناس ليعيشوا حياة كريمة، بالحد الأدنى على الأقل.

آمال الراعي لم تبدأ حياتها العامة ونشاطاتها المجتمعيّة حديثًا، فقد انضمت إلى مجموعات الثوار الفلسطينيين في طفولتها، حملت السلاح خلال اجتياح بيروت على الرغم من عمرها الصغير آنذاك، كان لها دور في إنقاذ بعض الناس في حرب المخيمات من خلال عملها في إسعاف الجرحى وتأمين احتياجات العالقين في حصار المخيم.

صورة ياسر عرفات معلقة في صدر غرفة معيشتها، تحبه إلى درجة أن أحد أولادها كان يظن أنّ أبا عمار هو جده.

زارت سجون النظام السوري حين كان يحتل لبنان، كثير من الناس كان يحاربها خلال عملها، زواجها الأول والثاني. تقلبات حياتها ليست سهلة. هذا كلّه لم يجعلها تتخلى عن أهدافها. ظلّت متمسكة بمبادئها التي لا تتزعزع: فلسطين، التي لم ترها، هي الحب الأوحد، وكلّ إنسان له الحق في العيش بكرامة في أيّ زمان ومكان.

كانت تقول إنّني ابنها الذي لم تلده، على الرغم من أنّها حتى اليوم تُخطئ لفظ اسمي. مرة اضطررتُ إلى الدخول إلى سوريا بطريقة غير شرعيّة ولم أستطع الخروج لشهور. قالوا لي إنّها كانت تبكي كلّما ذُكر اسمي أمامها. حين وصلت بيروت بعد رحلتي المتعِبة احتضنتني في الشارع الضيق المفضي إلى بيتها، وعيناها مغرورقتان بالدموع، قبّلت يدها وقلت لها "يمّا".

أخاف أن أظلم هذه المرأة فيما أكتب، وهي التي لا تتوقف عن القتال كلّ لحظة من أجل حياة ملأى بالمعنى في زمن لا معنى فيه. أحاول أن أكتب نصًا حقيقيًا لا مدحًا ولا ذمًا. أريد أن أكتب حقيقة ما رأيت من هذه المرأة وما سمعته منها. أريد أن أكتب حكاياتها التي لا تنتهي مثل حكايات الجدّات على الرغم من أنّها لم تبلغ عمر العجائز بعد، لكن أخاف أن تضيع حكايتها وسط كلّ

هذه الحكايات. أؤمن بأنّ الزمن والتاريخ غداران، لذا أخاف ألا تُقال حكاية آمال فتموت؛ لأنّ الحكايات التي لا تقال، تموت.

فلسطين هي قضيتي، مثل باقي قضايا الحريّة والكرامة في العالم، وحين أفكر بفلسطين أراها قويّة وحلوة ولا تخاف شيئًا كمقاتل وضع الحريّة نصب عينه ولا يُحيده عن هدفه شيء. أراها طيبة وحنونة مثل امرأة لا تستطيع الإنجاب فتحّن على كلّ أطفال العالم. أراها عزيزة وكريمة وحرّة مثلما أشتهي لحبيبتي أن تكون. حين أفكر بفلسطين أراها تشبه آمال الراعي.

أم كلثوم

ترتدي ثوبًا طويلًا. تمسك منديلًا بيدها. تغني بثقلٍ ورزانة. لا حركات مصطنعة ولا رقص ولا قفز على المسرح. هذه هي صورة أم كلثوم التي عرفناها منذ كنّا صغارًا وبقيت هكذا في أذهاننا، أو على الأقل بقيتُ أتصورها بهذا الشكل حتى اليوم الذي نشرت فيه جريدة الحياة مقالة للكاتب إبراهيم العريس بعنوان: "«الأطلال» لإبراهيم ناجي: الحكاية الخلفية لأغنية الأغنيات". يومها بحثت في موقع يوتيوب عن أغنية الأغنيات وأردت مشاهدة أم كلثوم تغني أطلالها على المسرح وأمام الجمهور الذي يحبها.

في تلك الليلة استمعت إلى أغنية الأطلال -كلمات الشاعر إبراهيم ناجي، تلحين الموسيقار رياض السنباطي، غناء أم كلثوم- لثلاث مرات متتالية، كنت أشاهد فيها أم كلثوم تغني على المسرح بمتعة لا تضاهيها متعة، ربما لم تغنِ كذلك طوال حياتها. أحببت أم كلثوم للمرة الأولى حين رأيتها تغني "عن العشاق سألوني" في فيلم "سلّامة"، وأحببتها للمرة الثانية في اليوم الذي شاهدتها تغني قصيدة الأطلال البديعة على المسرح.

وجدت في أم كلثوم ما لم أجده في كلّ ما قيل عنها، وفي كلِّ ما كُتب عنها. أكملت أم كلثوم بهذا الأداء على هذا المسرح المفتوح لهذه الدرّة الخالدة مثلث العظيمات الخالدات إلى جانب أسمهان ونينا سيمون. وجدتُ أم كلثوم أخرى، أم كلثوم لم أعرفها من قبل. وهاكم ما وجدته:

تبدأ الأغنية بموسيقى القانون والجمهور الكبير يصفق بحماسة الانتظار، يبدأ كلّ عازف بالعزف على آلته وتظهر أمامنا أم كلثوم جالسة على كرسي أمام الفرقة. تنظر حولها قليلًا. تبدو قلقة. ربما كان قلق المسرح.

تستمر المقدمة الموسيقيّة وأم كلثوم جالسة، والجمهور يرنو إليها، كما لو كانت إلهة في معبد منعزل فوق قمة جبل. تقف أم كلثوم فيعلو صوت التصفيق والصفير فوق صوت الموسيقى التي تستمر.

بدأت أم كلثوم الغناء: "يا فؤادي". التصفيق حار وصوته عال. أم كلثوم تبتسم للمرة الأولى وتكمل: "يا فؤادي لا تسل أين الهوى". هذا الفيديو كما كلّ حفلات ذلك الزمان مصور بالأبيض والأسود. لا ألوان إلّا أنّنا نستطيع أن نصف ما ترتديه الست: ثوب طويل قد يكون لونه أبيض. الثوب المزخرف اللامع يغطي كامل جسمها. تحمل منديلًا بيدها اليمنى المنفلتة إلى جانب الجسد. يدها

اليسرى مطوية ومرتفعة إلى مستوى أعلى البطن. ترتدي أقراطًا طويلة وشعرها مرفوعٌ فوق رأسها.

"كان صرحًا من خيال فهوى" تبتسم مرة أخرى وترجع خطوة إلى الوراء. يصفق الجمهور. تعود فتكرر البيت الأول من هذه القصيدة العظيمة. تحرك يديها بحركة متناسقة وهي تغني "طالما الدمع روى". تحسب أن القهر والشوق يخرج من صميم قلبها حين تقول: "كيف ذاك الحب أمسى خبرًا/ وحديثًا من أحاديث الجوى". يصفق لها الجمهور مرة أخرى. تعيد غناء البيتين الثاني والثالث، ثم تكمل: "لستُ أنساك وقد أغريتني/ بفم عذب المناداة رقيق" وتبتسم. تعيد هذا البيت وتكبر ابتسامتها. لماذا لم يقولوا لنا إنّ أم كلثوم تمتلك واحدة من أجمل الابتسامات؟

لا أستطيع وصف ما أحسّ به حين تغني: "ويد تمتد نحوي كيدٍ/ من خلال الموج مدت لغريق – وبريق يظمأ الساري له/ أين في عينيك ذياك البريق". حين تقول كلمة "غريق" أحسّ بطوفان الماء حولي، وعند الكلمة التالية "بريق" أحسّ بأمل تعطيني إياه بعذوبتها.

تختلف الموسيقى بعد هذا المقطع، يقاطع الجمهور العازفين بالتصفيق والصياح. فتعود أم كلثوم لغناء الأبيات السابقة. تكمل

الموسيقى طريقها بمقام جديد وسط تصفيق الجمهور. كوكب الشرق تتمايل طربًا مع هذا اللحن البديع.

تبدأ المقطع الثاني بمناجاة حبيبها مبتسمة فرحًا بقدرتها على إطراب هذا الجمهور كثير العدد: "يا حبيباً زرت يوماً أيكه". تضم يديها نصف ضمّة أحيانًا أثناء الغناء، ثم تفرد راحتها إلى الأمام. دائمًا ما كانت يدها اليسرى أعلى من اليمنى. في بعض المرات حين تغني كلمات معينة تقف أم كلثوم على رؤوس أصابع قدميها. تبتعد أحيانًا عن المايكروفون لكن صوتها القوي الرخيم لا يأبه بهذا.

حين تغني "وحنيني لك يكوي أضلعي/ والثواني جمرات في دمي" تكاد تحسّ بأنّها أدخلت جمرات إلى دماء الحاضرين في المسرح. تشعر بهذا من صوت التصفيق العالي الذي يطغى على كلّ صوت آخر. تتمايل أم كلثوم وهي تعيد غناء هذا المقطع. كأنّ جسدها يتقدم إلى الأمام وكأنّها ترغب في الطيران والوصول إلى جسد حبيبها المجهول. تضع يدها بالقرب من قلبها حين تقول "أضلعي". تنهي غناء هذا المقطع. تبتسم. تعود خطوة إلى الوراء. يصفق الجمهور. ما الذي كان يفكر فيه إبراهيم ناجي حين كتب هذا الكلام؟ يا للعظمة!

"أعطني حريتي أطلق يديا" تغنيها بقوة وترفع ذراعيها. يصفق الجمهور. تكمل "إنني أعطيت ما استبقيت شيّا". صوتها في هذا المقطع أقوى من المقاطع السابقة وكأنّ الألم قد امتلكها. "آه من قيدك أدمى معصمي" تعيد "آه" مرة ثانية. أحسّ بأنّ هذه "الآه" تخرج مني. أصابُ بالقشعريرة. "وإلام الأسر والدنيا لديا" وتفتح ذراعيها على اتساعهما كأنّها تريد احتضان الحبيب أو الجمهور. يتفاعل معها الجالسون أمامها ويصفقون لها بحرارة.

تعيد غناء هذا المقطع مرة أخرى بنفس القوة والحب والألم. بماذا كانت تفكر فاطمة بنت الشيخ إبراهيم السيد البلتاجي حين كانت تغني هذه الأغنية؟ هل تذكرت طفولتها في تلك القريّة البعيدة؟ هل كانت تتذكر بداياتها؟ هل فكرت بحياتها ومعنى حياتها حين كانت تبتسم وتنظر في الاتجاهات المختلفة لترى الاستمتاع والحب على وجوه من قطعوا مسافات طويلة لحضور حفلها، فقط لأنّ اسمها أم كلثوم؟ ربما لا يوجد شخصٌ أسعد منها في العالم في هذه اللحظات. تكبر ابتسامتها مع اشتداد تصفيق الجمهور.

تعيد المقطع مرة أخرى بعد فاصل موسيقي. أ هذا لحن أغنية أم هذا لحنٌ يلخص الحبّ في العالم؟ ما الذي كان يفكر به رياض السنباطي حين وضع هذا اللحن؟ هل كان هذا اللحن من صنع

البشر أم أنّ وحيًا ما وضع النوتات الموسيقيّة؟ يا لجمال وعظمة هذا اللحن!

في الفاصل الموسيقي التالي تصيح أم كلثوم: آآآآآه. تكبر ابتسامتها. يتفاعل الجمهور تصفيقًا. تستمر الموسيقى في دورتها اللانهائيةّ. تهتز أم كلثوم وتحرك نفسها بتحفظ. كأنّها ترغب بالرقص. تطلق "آآآآآهًا" عاليّة أخرى. يصفق الجمهور من دون تعب. "آه" صغيرة تخرج من قلبها الفَرِح.

يبدأ المقطع الجديد بجدية وينتهي بيته الأول بابتسامة: "أين من عيني حبيب ساحرٌ/ فيه عز وجلال وحياء". تكبر الابتسامة. لا أستطيع التأكد من هذا في صورة الأبيض والأسود هذه، لكن أكاد أجزم بأنّها تغمض عينيها حين تقول: "واثق الخطوة يمشي ملكاً/ ظالم الحسن شجي الكبرياء – عبق السحر كأنفاس الربى/ ساهم الطرف كأحلام المساء" تحرك يديها كثيرًا وهي تغني. تبتسم. تتمايل وتهتز طربًا على غنائها. تحرك رأسها يمينًا وشمالًا. يصفق الجمهور بحرارة كبيرة. تستمر الموسيقى. تغني "آه" طويلة لا تريدها أن تنتهي.

تعيد غناء المقطع. عند كلمة "واثق" تبدو وكأنّها تريد القول: هذه جملة سأتركها للزمن، ويتداولها الناس من بعدي. يا إلهي ما هذا

الحبّ الذي تغني له هذه المرأة؟ يتكرر المقطع الموسيقي وتتكرر الآه ويتكرر التصفيق.

تسكن موسيقى الآلات الموسيقيّة باستثناء صوت آلة القانون الذي يتخلله بعض اللحن من آلة الكمان. يصرخ أحد الحاضرين من الجمهور بشيء ما، صوت ضحك وابتسامةٌ من أم كلثوم. إنّها تحب أنّ الناس يحبونها. تستمر الموسيقى بجريانِها العذب. يا الله! "أين" طويلة تبدأ به الست غناء المقطع الجديد: "أين مني مجلس أنت به". تناجي العالم والسماء اشتياقًا للقاء المحبوب. "وأنا حب وقلب هائم/ وفراش حائر منك دنا". يا لهذه الـ"أين" وما تحمله من معان. الموسيقى هادئة في هذا المقطع حتى الآن "ومن الشوق رسول بيننا" تستمر المناجاةُ نداءً للحبيب، واستحضار ذكريات لا تنتهي "ونديم قدّم الكاس لنا". يعلو الصوت في كلّ مرة تعيد فيها هذه الجملة حتى تصل أقصاها في "لنا" ويستمر الصوت بنفس الطبقة في البيت التالي "هل رأى الحب سكارى مثلنا/ كم بنينا من خيال حولنا" تعيد البيت مرتين... ثلاثة... أربعة...عشرة وتستمر الذاكرة في تذكر الحبيب.

مشاعر متناقضة تظهرها أم كلثوم؛ لوعة واشتياق وحب في الكلام واللحن والأداء وحبّ وفرح بتفاعل الجمهور مع غنائها. يا له من مزيج رائع لا يوصف!

تستمر بالغناء فرحًا بتذكر اللقاء "ومشينا في طريق مقمر/ تثب الفرحة فيه قبلنا – وضحكنا ضحك طفلين معاً/ وعدونا فسبقنا ظلنا" يصفق الجمهور كما لم يفعل قبلًا. تبتسم أم كلثوم وهي تهتز وتتمايل على اللحن الرائع وصوت الناي الحنون. تفتح ذراعيها، المنديل في اليد اليسرى الآن. تعيد غناء هذا المقطع. تشعر وكأنّ هذا المقطع هو قلب هذه الأغنية. أم كلثوم تُشعرك بذلك حين تغني هذا المقطع. إنّها تقول: هذه الأغنية هي تحفتي وقلب هذه التحفة هو هذا المقطع وقلب هذا المقطع هو كلمة "سكارى" أنظروا كيف أنطقها.

أم كلثوم جذلى بتفاعل الجمهور معها. أم كلثوم تحب أن تكون مركز الاهتمام. تعيد الـ "آه" في الفواصل الموسيقيّة من أجل إمتاع الجمهور ومن أجل أن تشعر بأثر ما تقوم به.

تعيد غناء "هل رأى الحب سكارى" يصفق الجمهور، يصيح، يتمايل، إنّها ليلة العمر. أم كلثوم تغني مبتسمة أمامهم. لا بدّ أنّها كانت فتاة أحلام عدد كبير منهم، فضلًا عن آخرين غير قادرين على الوصول إلى هذه القاعة لأسباب مختلفة. تمد ذراعها اليمنى على اتساعها حين تقول "فسبقنا ظلنا" وتثير هياج الجمهور الذي يصفق، وهي تبادله بالابتسام والحب الذي يطفو على وجهها.

تعيد مرة أخرى غناء المقطع. تتفن في نطق كلمة "سكارى" في كلّ مرة تغنيها وتلحقها بـ"آه" تخرج من صميم القلب. آهٍ على الـ "آه" التي تنطقين بها يا أم كلثوم. آه على غنائك. آه على ابتسامتك. آه على كلّكِ.

تهدأ الموسيقى بأصوات الكمان. يبدأ الألم "انتبهنا بعدما زال الرحيق/ وأفقنا ليت أنّا لا نفيق". تختفي الابتسامة. "يقظة طاحت بأحلام الكرى/ وتولى الليل والليل صديق". تختلف نبرة الصوت وحركات اليدين متناسقة مع ميل قليل إلى الأمام "وإذا النور نذير طالع/ وإذا الفجر مُطل كالحريق – وإذا الدنيا كما نعرفها/ وإذا الأحباب كلّ في طريق" تعود خطوتين إلى الوراء لتعطي المجال للموسيقى. تتقدم إلى الأمام وتصيح "أيها الساهر تغفو/ تذكر العهد وتصحو". تعيد غناء هذا البيت الشعري ويستمر الألم وتستمر المعاناة: "وإذا ما التأم جرح/ جدّ بالتذكار جرح". تعيد النداء "أيها الساهر" تعيد الغناء بهدوء على الرغم من ارتفاع طبقة الصوت في نهاية هذا المقطع حين تقول "فتعلم كيف تنسى/ وتعلم كيف تمحو".

يرتفع صوت الموسيقى مترافقًا مع صوت التصفيق وجنون الجمهور المتواجد في المسرح. تداعبهم أم كلثوم بآهات متقطعة وهم يتقافزون ويتمايلون طربًا بصوتها القادم من كوكب آخر.

"يا حبيبي كلّ شيء بقضاء/ ما بأيدينا خلقنا تعساء" هكذا نستسلم للقدر. هكذا يقول لنا إبراهيم ناجي على لسان أم كلثوم. هكذا لا قدرة لنا. "ربما تجمعنا أقدارنا/ ذات يوم بعد بعدما عز اللقاء – فإذا أنكر خلّ خلّه/ وتلاقينا لقاء الغرباء" يرتفع صوت الموسيقى ويرتفع صوت أم كلثوم. تُنهي الأغنية بقفلة عالية وسط صخب تصفيق الجمهور "ومضى كلّ إلى غايته/ لا تقلْ شئنا فإنّ الحق شاء".

انتهت الأغنية بابتسامة أم كلثوم. لا ندري إن كانت قد تركت المسرح فورًا أو أنّها انحنت للجمهور وحيّته. بماذا كانت تفكر بعد أن أنهت أداء هذه الأغنية؟ ما فعلت حين وصلت إلى بيتها وأغلقت على نفسها باب غرفتها؟ أستمع إلى الأغنية الآن وأفكر: من قال إنّ أم كلثوم قد ماتت؟

رسائل

إلى سلطانة

مضت سنوات على لقائنا الأخير. كيف الحال يا سلطانة؟ كيف حال بيتنا في الشام؟ أ ما زال مثلما هو، عامر بالضيوف والموائد، أم أنّ الغبار احتل كلّ شيء؟ كيف حال جدار غرفتي المزّين بالصور واللوحات؟ كيف حال جيراننا؟ أفكر بكِ كثيرًا هذه الأيام، وحلمت بكِ كثيرًا في الليالي السابقة. عساه خيرًا.

قالوا لي إنّك ذهبتِ إلى دمشق، لماذا ذهبتِ إلى هناك مرة أخرى؟ هل حقًا لا تشعرين بالارتياح سوى في بيتكِ في الشام؟ ألا تخافين الطرقات الخطرة والحواجز الأمنيّة والقذائف والمعارك هنا وهناك؟

سافرتِ إلى الاتحاد السوفيتي وهولندا وألمانيا وكوردستان العراق وإلى تركيا، حيث التقينا في المرة الأخيرة، عشتِ في القامشلي وقراها لكن لم يطب لكِ البقاء سوى في البيتِ الذي أشرفتِ على بنائه بنفسكِ.

رأيتُ مفتاح بيت الشام معكِ في مدينة أضنة، حينها قلتِ لي بأنّك تحملينه معك أينما رحلتِ لأنّك ستعودين يومًا وتفتحين باب البيت مجددًا؛ ذلك الباب الذي كان مفتوحًا على الدوام. ربما كان قدرنا

أن نتشبه بالفلسطينيين. كنتِ تقولين: نحن الأكراد نشبه الفلسطينيين بكلّ شيء، مأساتنا واحدة.

لا أعرف لم لا أقول لكِ هذا الكلام مباشرة، لا أعرف لماذا لا أتصل بكِ، ربما لأنّنا لم نتعلم كيف نعبّر عن مشاعرنا بشكل مباشر، تعلمنا أن نكون قساة من الخارج وضعفاء من الداخل، مثلك تمامًا. أنتِ أقوى امرأة كرديّة عرفتها حتى الآن.

اليوم كنت أحدث حبيبتي عنكِ. حبيبتي ألمانيّة لا تعرف جوان حاجو ولا تستمتع بصوت الشيخ إمام. واليوم نشر عمي جوان صورًا لكِ، كنّا أنا وأخي واثنين من أعمامي معكِ في هذه الصور، إنّها صور قديمة جدًا. كنتِ شابة إذا ما أردنا مقارنة هذه الصور مع صورك الجديدة.

لا أعرف إن كان هذا اشتياقًا، لا أعرف، مشاعري مختلطة. اعتقدت إنّني قطعت كلّ صلة لي بحياتي السابقة، بعائلتي، بأصدقائي، بدمشق، بكِ. لكن يبدو أن هذا غير صحيح، الآن على الأقل.

يا يادة... أمي العربيّة نناديها "ماما" وأنتِ، جدتي الكرديّة نناديكِ "يادة". وهي حقيقة. ألمْ توبيخينا كما تفعل الأمهات؟ ألم تطعمينا بيديك؟ ألمْ تشاركي بتربيتنا؟ أتذكر حين أحببت للمرة الأولى، كنت مراهقًا يعتقد نفسه معذبًا وكان بيتنا، مثلما جرت العادة مليئًا

بالضيوف، حينها أخذتني إلى غرفة أخرى وسألتني عمّا بي. كنتِ تعرفين ما بنا من نظرة واحدة، كما تفعل الأمهات لا الجدّات. قلتُ لكِ بأنّني أحب واحدة من عائلة نعرفها. قلتِ لي: لا بأس لا بأس، غدًا تكبر وتحب كثيرين غيرها. لقد كبرتُ يا يادة وأحببتُ كثيرين غيرها. أنا اليوم كبير، هل تصدقين؟

حين أتذكر حياتي السابقة التي كنتِ جزءًا كبيرًا منها أتذكر وقوفَكِ أمام المطبخ وإعطائي صحنًا فارغًا وبعض الليرات لأشتري بعض الحمص من أجل تناول طعام الإفطار. يا لهذه الذاكرة اللعينة! آه يا يادة لو فقط أستطيع أن أتخلص من هذه الذاكرة المتعِبة.

يقولون أنّني مدلّلُكِ. قلتُ هذا لحبيبتي، قلتُ لها بأنّ كل الناس ينادونني دلو إلا أنتِ، كنت تنادين عليّ بابتسامة وتقولين دلدل. سألتكِ مرة: لماذا دلدل؟ فقلتِ لأنّك قلب قلبي[1] جدتي.. يا قلب قلبي... سلام على روحك البعيدة، وأعدّكِ، لنا لقاء قريب في عالم ما.

[1]- **"دِلْ" Del بالكرديّة وتعني القلب.**

والشوق يأخذني من مغارب الأرض إلى مشارقها. إنّ ساعة من تلك الساعات التي كنتِ شريكتي فيها تستأهل حياتي كلّها، بكلّ تفاصيلها، منذ شروقها إلى يوم غروبها. هناك أنتِ، وأنا هنا في مكان بعيد بارد. أسهر الليل بطوله وحيدًا لا أنيسَ لي سوى كتاب يُبعد عني أفكار البعد، حتى إذا انصدع عمود الصبح الأول خرجتُ مع أوائل المُدلجين أترنح في شوارع لا شمس فيها ولا نور يفيض عليّ منكِ.

إنّ حياة البعدِ لأشدُّ وطأة من حياة معذّب في أحد سجون الموت المنتشرة في بلادنا، أو هكذا أحسّ أنا الغريبُ الوحيدُ في بعادي عنكِ. إنّ قلبي يذوب في كلّ شبر يبعدني عنكِ. أحسّ بأنّني جثة ملقاة على قارعة الطريق، والذئاب متأهبة للانقضاض عليها ونهشها. أعبر بلادًا جديدة كلّ يوم لكن الجمال يهرب مني، وكأنّ به قد أقسم ألا يُظهر لي شيئًا من مفاتنه إلا بحضورك، ويكون الشُّنوع لون صورتي حين أنظر إلى وجهي في المرآة وحيدًا.

لا معجزات هنا ولا مستحيلات، كلّ شيء حيادي، حتى إن آمنتُ بوحيٍ أو بسِعْلاة فلن يكترث أحد. ابحث عنكِ لتهتمي بترهاتي

التي أكتب وأقول. أنظر إلى صورتكِ كلّ صباح، ألَمْ أقل لكِ سابقًا بأنّ الصبح هو أكثر لحظاتي التي أشتاقكِ فيها؟ إنْ حدث وأُقفلتْ عيناي على الدنيا مدخلة إيايّ في موت مؤقت أحلم بكِ، وإنْ استيقظت أبحث عنكِ ببؤبؤيّ اللذين يدوران في محجريهما عساهما يصادفانكِ في الطريق.

مع كلّ ضوء جديد أهرب إلى صورك المعلقة على جدار معبدي، فأعجبُ من جمالكِ وأشيحُ لهذه المفاتن فاهي. ذات صباح وجدتك أجمل من كلّ مرة سابقة فَعَصِبتْ روحي ثم صرختْ تنادي باسمكِ. يا لجمالك!

حياتي من دونكِ يا حبيبة أشبه بقيء كلبٍ في قحف خنزير. أنتِ الجمال ومن دونك الأرضُ يبابْ.

كالهواء وجودكِ، لا أستطيع الاستمرار في هذه الحياة البائسة من دونه لكن هذا ليس كلّ شيء. أحبكِ على الرغم من الدنيا وسأبقى أحبكِ على الرغم من الدنيا لكن هذا ليس كلّ شيء. لا أعلم لماذا. لا أعرف كيف انتهى بنا الطريق هنا؛ كلّ ما أعرفه هو أنّي أحبكِ كما أحببتكِ في اللحظة الأولى. تلك اللحظة التي بدأتْ بكتابة تاريخ عمري.

ما زال قلبي يُسرّع في دقاته كلّما سمع صوتكِ، وإنْ كان صوتًا يخرج من عقلي الباطن وليس من بين شفتيكِ. ما زلت أتوقف عن

التنفس لثوان كلّما مرّت صورتكِ أمام عينيّ. وهل غِبْتِ عنّي يومًا؟! لا أذكر نفسي إلا معكِ. لا أحنّ إلا إليّكِ.

أحبكِ يا زهرة الصبح ويا شريكة الطريق. ستبقين أنتِ عنواني، وأبقى أنا الباحث عن بابٍ يطرقه، فعساه يلقى طريقه خلف هذا الباب.

هل تعلمين بأنّني ما زلت أشعر بالبرد الشديد منذ سمعت صوتك للمرة الأخيرة؟ أشعر ببرد متجه من داخلي إلى خارجي، برد ينخر العظام. منذ تلك الحظة التي سمعتُ فيها صوتك، القادم من ذلك الجهاز البارد المسمى بالهاتف المحمول، وأنتِ تقولين "باي" بدأت أشعر بأنّ قفصي الصدري أصبح أضيق وأنّ قلبي تقلص. صدقيني هذا ليس من مبالغات الشعر وكذبه، هذا ألم فيزيائي أحس به حتى الآن. يا لوجعي!!

إنّني أنتظرك هنا على الرغم من علمي بصعوبة الطريق الواصل بيننا. إنّني أنتظرك على الرغم من علمي بأنّ جوازات السفر الحقيرة تحول بيننا. أحبك كما لن يحب سواي. أحبكِ. تبًا للأبجديات فليس فيها كلمات وحروف تستطيع أن تضع قلبي على طبق وتقدمه لكِ. أحبكِ إلى أن تغيب الشمس يومًا عن هذا الكوكب البائس.

رسالة أولى إلى رامي

إن قلبي مقبرة جماعيّة ينام فيه الكثيرون ممن أحببت، وعلى أطرافه معتقل كبير يزوره الكثير من أصحاب القلوب المقبرة. لعن الله ذاكرتي العفنة. لا شيء فيها سوى الموت والقهر والذلّ والعذاب والاشتياق. الاشتياق لأصحاب الطريق.. لرفاق التعب.. الاشتياق لك.

يا رامي...

يا صديقي المرمي في عتمةٍ ما، لا يعرفها إلا جلادٌ وحشٌ، يعذبك ساعة ويلعبُ مع أطفاله ساعة، كيف حالك؟ هل تسمعني؟ هل تسمع صوت دقات القلب حين أحدثك؟

لنا صورة يا صديقي في بيروت، التقطتْ لنا في بيت واحدة من رفيقات دربنا، أنا أرتدي بنطال جينز أسود مع كنزة صيفيّة خفيفة، أضع شالًا أحمر وقبعة مدورة على رأسي. أنت ترتدي كنزة صيفيّة ذات لون عسكري فوق جينز أزرق، شعرك الطويل قد رُبط إلى الخلف. لي لحيّة كاملة ولك سكسوكة تحبها. كرشك كبير كما هو دائمًا.

هل تذكر هذه الصورة؟ صديقتنا تلك، تعيش الآن في بلاد باردة في الشمال الأوروبي. أنا غادرتُ بيروت بعد اعتقالك بحوالي خمسة شهور ولم أعد إليها حتى الآن، كانت خاوية بيروت من دونك. ثيابي السوداء وشالي الأحمر ما زالا كما كانا. لحيتي أطول وشعري أطول. انظر إلى هذه الصورة الآن، ويبكي قلبي حسرة وقهرًا وضعفًا.

أحب برلين حيث أسكن الآن، لكنّي أفضّل بيتًا صغيرًا من بيوت أشرفيّة بيروت، يجمعني بك؛ كأس من العرق ولعبة "طاولة الزهر" وأحاديث لا تنتهي. أغنية "اشهد يا عالم علينا وع بيروت" نغنيها أنا وأنت وخالد في إحدى القرى في جبل لبنان. خالد استشهد تحت التعذيب في إحدى أقبيّة الأسد، وأنا وحيد الآن في منفاي أكتب عنكما والوجع يعتصر قلبي، وأنت.. أنت.. يعلم الله وحده أين أنت. هل تسمعني يا رامي؟ يقولون إنّ القلوب تتحادث مهما كانت المسافة التي تفصل بينها. هل ترى الشمس ذاتها التي أراها، تلك التي ندور حولها دورة أبديّة؟ هل تذكر محفظة النقود المصنوعة من ورق الجرائد؟ ما زلت محتفظًا بها، كلما أخرجت نقودًا، أو كلما احتجت إلى هويتي وأخرجت المحفظة، أرى طيفك أمامي مبتسمًا، وأنت تمد يدك لتعطيني إياها.

يبكيني غيابك، يبكيني عدم وجودك يا صديقي. أفتقدك بكل ما تعنيه كلمة فقد من معنى. رامي، لا أعرف ماذا سأقول لك، هذا إن التقينا ذات يوم. يبقى الأمل كبيرًا يا صديقي، لكن لو يأتيني خبر منك، خبر واحد يثلج قلبي. لو أعرف أين أنت. لو أعرف أنّك حيّ. لو لو لو آخ يا صديقي يا لوجعي!!! يا لوجعك!!!

لعن الله الشام التي تخفيك يا رامي تحت الأرض في قبو معتم مليء بصرخات ألم ووجع لا ينتهيان. لعن الله بلدًا، لم يحتمل قلبك الطيب. لعن الله ذاكرة تنساك يا رفيقي.

رسالة ثانية إلى رامي

يسألونني أن أكتب عنك. ماذا عسايّ أقول؟ ماذا عسايّ أكتب؟ ما نفع الكتابة عنك، والكتابة إليك، وأنت غائب؟

هذه الصفحة البيضاء أمامي منذ يومين، أنظر إليها طويلًا، أفكر بكلّ شيء إلا بك. أحاول تجنّب صورتك. أصنع لنفسي بعض القهوة. أقول لنفسي القهوة قد تساعدك على ترتيب أفكارك. هراء. كلّ هذا هراء. رأسي أشبَهُ بجدار قد علّقَتْ عليه صورتك، كبيرةً. إنّك تبتسم في صورة الجدار الرأس. أقول لك: "هل تشرب القهوة معي؟ تفضل". "تعيش" تقول لي. ابتسمُ وأقول: "يعيشوا حبابك". تتسع ابتسامتك وأنت الذي تعرف هذه المحادثة التي كنّا نكررها كلّ نصف ساعة تقريبًا. "يعيشوا صحابك" تقول. أضحك وأنا أقول "أهلين أهلين".

أفكر بكَ كثيرًا هذه الأيام، لا أعرف لماذا. إنّها الذاكرة العفنة تنتقي ما تشاء من ذكريات ترميها في وجهنا متى شاءت. أحاول أن أحرس ذاكرتي من ذكريات تصيبُها بالخوف والعجز لكن الذكرى الفجاءة تباغتني وتحتل أفكار يومي. أنت تحتلني اليوم يا رامي.

أستطيع أن أكتب صفحات طويلة عن عدم رضاي عن أنظمة دول العالم وعن كرهي للنظام العالمي وعن أخطاء الحكومات والشعوب. أحسُّ أنّ بمقدوري كتابة مجلدات عن عدم العدل في العالم وعن الظلم والقهر. أستطيع أن أملأ صفحات الجرائد بالحديث عن الحريّة والكرامة. لكن لا أستطيع أن أكتب صفحة إليك. يا للعجز!

يا لعجزي وأنا أنظر إلى هذه الورقة منذ أربعة أيام ولا أستطيع أن أكتب لك شيئًا! كلّ يوم أكتب كلمتين أو ثلاثة... هل نفدتْ الكلمات من جعبتي؟ أفكر، ربما أستطيع أن أقول لك الكثير، أن أتحدث إليّك أيامًا طويلة حين التقيك مجددًا. هل سأراك مرة أخرى؟ أخاف من هذه الفكرة فأُبعدها إلى أسفل رأسي. أقول لنفسي ربما لن أستطيع أن أنطق كلمة واحدة. ربما أضمك وأبكي معك عليك، وعلينا، وعلى بلادنا.

يا رامي، كيف تقضي يومك؟ كيف تشرب الماء؟ هل تشبع من الأكل الذي يأتونكم به؟ كيف شكل زنزانتك؟ هل تعرف شكل جلاديّك؟ أشعر وكأنّني أُمّك وأنا أسائل نفسي هذه الأسئلة؟ هل أراك يومًا لتخبرني تفاصيل السنين التي مرّت وأنت تلتحف ذاك الظلام البشع المُخيف؟ يا رامي... كيف حالك يا رامي؟

لم أحلم بك حتى الآن. صورتك عصيّة على أحلامي. أريد أن أراك مرة واحدة على الأقل لتخبرني أنّك بخير وأنّك تشتاق للجلوس معي والحديث عن كلّ شيء. أخبرني مرة واحدة، في حلم واحد، عن أنّك تريد تناول الطعام معي، طعام كثير نتناوله على طاولة كبيرة. تعال في حلم واحد. لا تكن بخيلًا. تعال.

أسئلة... أسئلة... أسئلة... أسئلة كثيرة تدور في رأسي، كلّها تدور حولك. أنتَ محور هذه الأفكار الأسئلة. أنتَ الذي علمتني كيف أحبّ الناس كلّهم بلا تمييز. علمتني كيف يكون الإنسان قادرًا على حُبّ الآخرين من دون بذل جهد كبير. هل يعرف جلادك والمحقق وحرّاس السجن، لو أنّ الظروف غير هذه الظروف، أنّك سوف تساعدهم لو كانوا فقراء ومحتاجين؟ هل يعرفون أنّك قد تعيل عائلاتهم لو كانوا يموتون جوعاً؟ هل يعرفون أنّك ستفعل المستحيل من أجل إنقاذهم لو كانوا يعانون من مرض خطير؟ هل يعرفون أنّك تفعل هذا من دون أن تعرف أفكارهم وخلفياتهم وآراءهم وأفعالِهم؟

اليوم هو اليوم السابع منذ بدأت كتابة هذه الرسالة. كيف حالك اليوم يا صديقي؟ هل تشعر بالبرد؟ لا أعرف لماذا أفكر بمثل هذه الأمور، ربما هو الشوق يأخذنا أماكن نجهلها، يأخذ بنا إلى

مساحات لا نعرفها في دواخلنا، فندمن الشوق وكأنّه دواء غربتنا المرّة ومتنفسنا الوحيد في بحر غرقنا.

لماذا أكتب لك هذه الرسالة وأنت لا تستطيع قراءتها؟ أ أكتبها لنفسي؟ "ربما تكتبها لنفسك" أجيب عن سؤالي. أقول بصوت مسموع في غرفتي البعيدة عنك: "أنا عم أكتب لحالي مشان حس بحالي... أنا ما عم أكتب عنك يا رامي... أنا عم أكتب عن حالي..." يا لأنانيتي! حتى وأنت في ذلك الظلام أفكر بنفسي وعلاقتي بك، ولا أفكر بك بشكل مجرد. لا أفكر بك كشخص مستقل عني لديه حياة وحبيبة وأصدقاء كثر وعمل وساعات مرح. لا أفكر بك إلا كصديقي... يا لهذه الأنانية!

رسالة حب ثانية

قصبٌ ينوح على جرحي المفتوح منذ أشهر طويلة، فأنا الآن، كما تعرفين، رمادٌ وبقيّةٌ ممّا كنتُه حينها، معكِ. أنا رمادُكِ. أنا تركتُكِ. بعضي يا حبيبة ذبيحةٌ أنتِ ذابحها، وبعضي الآخر لهيبٌ لا ينطفئ.

رأيتُ نفسي نائمًا في سريرنا ورأيتك بجانبي تمررين كفَكِ الجميل على وجهي وجسدي تتلمسين مسامات ظهري وأنا أتنفس رائحتك التي لا تشبه إلا رائحتك. تكفيني هذه الصورة لأشعر بسعادة غامرة لا تخف.

ها أنا ذا أنتظر مرور جنازتي أمامي، أنا الذي يعيش في متسعٍ من فراغ، أنا الذي اكتسيت بكِ دهرًا أنتظر جثتي لتمر وأودعها قبل أن تجعلي التراب غطاء لي وأدفن في شوارعكِ.

حدث ما حدث ومرّت الأيام بسرعة، لم أفهم الكثير من التفاصيل التي حدثت، لكنني الآن على يقين بأنّ ما كان بيننا قد قُتل. أشعر بحبك وأحبُّكِ، لا يختلف على هذا الأمر شخصان، قلت لك في رسالة سابقة: "إنّي أحبكِ كما أحببتكِ في اللحظة الأولى" لم يختلف الأمر الآن فما زلت أحبك كما أحببتك من قبل، لكن علاقتنا انتهت.

كان لي بعضٌ من أمل لكنّكِ اليوم دفنته بجوار ما تبقى من حطامي. اليوم عرفت أنّ كلّ شيء انتهى.

لا مكان لحبنا اليوم، لا متسع لنا، كلّ هذه الأرض ضاقت بنا. كان لنا طريق واحد والآن أصبح لنا طريقان، أنتِ اخترت الجنوب وأنا بقيت سجين الشمال.

ربما تكون هذه رسالتي الأخيرة، وربما سأحاول أن أبحث عنك، مرة أخرى، في طرقات المدن التي عرفناها، في باريس وبرلين وأمستردام ووو... لكن من المؤكد أنّني الآن جلد جديد يرتدي روحًا أخرى غير تلك التي كانت وعرفتِها.

لا أعرف كيف أقول وداعًا، لا أعرف إن كان عليّ قولها لكن الانتظار صعبٌ ومتعبٌ وقاتل في بعض الأحيان، انتظار بلا أمل، كما رجل يجلس على سكةٍ ينتظر قطارًا لا يجيء فيمشي مع اتجاه السكة ليكتشف أنّ السكة لا تصل إلى مكان وهي منقطعة، أما أنا فكنت في الشهور السابقة، على الرغم من معرفتي بانقطاع السكة، منتظرًا. بقيتُ منتظرًا رائحتك تفوح من حولي. الآن أفكر بأن أبدأ طريقًا جديدًا لأنّ القطار لن يصل.

قد آن الأوان يا حبيبة لأنزع عن نفسي جلدي، وأبدل الثوب الذي أرتدي. قد آن الأوان لأبدأ من جديد وألملم شظاياي وأكوّن نفسي

من جديد. قد آن الأوان لأولّد نفسي من نفسي فأكون صُنعة نفسي لا بقيّة منك. قد آن الأوان لأكون نفسي لا الظلّ التابع لعلاقة ميتة.

أكتب لكِ هذه الرسالة وأنا أتخيل نفسي صغيرًا ممسكًا بيد أمي ونحن نمشي في شوارع الشام. أ هذه آخر رسائلنا؟ هل تذكرين المئات من رسائلنا؟

صعبٌ هو الطريق من دونكِ، صعبة هي الحياة لكن، مع الأسف، لا بدّ منها. سأتعلم المشي مرة أخرى وسأحاول ألا أتعثر مع كل خطوة. سأتعلم الكلام من جديد وسأحاول ألا أخطئ حين أنطق اسمكِ يا حبيبة.

لا وقت لنا الآن، لا وقت لي الآن وفي الهواء يضيع كلّ الكلام، ما فائدة الكلمات؟ أ ليست الأشياء كلّها عبثٌ الآن؟ وحيدًا سأحارب هذا العبث الآن، وحيدًا يا حبيبة، وحيدًا... وحيدًا.

إلى سليم بركات

كثيرًا ما فكرت بالكتابة إليك، لكنني لم أعرف ما يجب عليّ قوله، ولم أعرف كيف أرسل إليك ما سأكتبه. لا أعرف أصلًا لماذا يكتب قارئٌ ما رسالة إلى كاتب يحبه، هل يرغب في تبادل فعل الكتابة معه؟ على كلّ حال بعد أن بدأت الكتابة أصابتني حالة من الخوف؛ خفت من أن تخونني لغتي وأنت من يستطيع مسك اللغة من حيث يريد ويقلبها بين يديه كما يشاء. أعرف أنّك تُظلم حين يتم الحديث عنك وعن قدراتك الكبيرة في اللغة العربيّة وعن "استعراض عضلاتك اللغويّة" فيما تكتب من دون الالتفات إلى مواضيع ما تكتب. أعرف أنّ هذا ظلم وأنّ من يكتب عنك لم ينتبه إلى الصور والعوالم التي تخلقها، ولنا في أقاليم الجن مثال. يا لهذا العالم الذي خلقته في هذا الكتاب! ما هي حدود خيالك؟

يقولون إنّك كنت قدوة للشباب في القامشلي إلّا أنّني لم أعرف هذا حين كنت طفلًا هناك. كانوا يقولون إنّ من كان يدور في فلك الثقافة في صدفة الشمال السوري كان يقلّد طريقة كتابتك وطريقة حياتك وحتى تسريحة شعرك. أما أنا فقد تعرفت عليك أولًا في دمشق. ديوان المعجم كان أول ما قرأت لك. وضعه أحد أعمامي

على الطاولة، كنت أعرفك من قبل لكنني كنت أخاف لغتك الصعبة، كانوا يقولون في بيتنا: قبل أن تقرأ سليم بركات، ضع معجم اللغة العربيّة إلى جانبك. لم أجرؤ حينها على قراءة ما كنت تكتب.

بعد المعجم قرأت "السيرتان" يا إلهي، لقد جعلتني أحبّ حارات الطين في مدينة أبي. وهكذا بدأت تتوالى قراءاتي لك، حتى بتُّ أنتظرُ كتبك الجديدة بفارغ الصبر. في السابق، أي حين كنت أعيش في البلاد، سوريا، لم أكن أملك ترف شراء الكتب. هل تتخيل شاب جامعي في دمشق يستطيع شراء الكتب التي يريد ساعة ما يريد؟ تبًا لها من حياة. اليوم وأنا أعيش في برلين أسأل أصدقائي القادمين من بيروت على أن يحملوا لي كتابك الجديد، كلّما صدر لك كتاب جديد.

عندي ثلاثة قصص صغيرة أريد أن أحكيها لك. أولى القصص هي ما حلمت به منذ شهور قليلة. كنت قد حلمت بفوزك بجائزة نوبل للآداب. هل من الممكن أن يتحقق هذا الحلم يومًا ما؟ أتمنى. ستكون الجائزة، حين تفوز بها، كما لو أنّها قُدمت إليّ.

قصتي الثانية من كوباني. في سنة ٢٠١٥ قمت بزيارة صحافيّة مع صديق ألماني إلى مدينة كوباني. كانت المدينة حينذاك قد تحرّرت من قبضة داعش قبل أيام قليلة بعد قتال دام أسابيع طويلة.

كانت المدينة مهدمة، لا حجر فيها أكبر من حجم الكف. مدينةٌ خراب. جثث مقاتلي داعش في كلّ مكان؛ رائحة قاتلة. وسط هذا الدمار، حين كنّا نتفقد الحارات المهدمة بحذر خوفًا من لغم ينفجر فينا، رأينا بعضَ نباتاتٍ مزروعة في أصص، أصلها علب سمنٍ وزيت، مرتبة بشكل لطيف. اقتربنا من هذه النباتات. كان رجل يجلس هناك. أصبح صديقنا نسامره كلّ يوم تقريبًا خلال أسبوعين قضيناها في المدينة الحرب.

هذا الشخص هو أستاذ لمادة الفلسفة في المدارس الثانوية، نزح مع عائلته إلى تركيا حين هاجمت داعش المدينة. أرسل عائلته إلى عفرين في ريف حلب وبقي هو ينتظر على الحدود، العودة. كان من أوائل العائدين بعد تحرير المدينة. بيته كان مهدّمًا بشكل شبه كامل. بقيت له غرفة صغيرة ومطبخ بثلاثة جدران. قال إنّه رجع إلى كوباني من أجل أن يزرع بعضًا من النبات الأخضر. قال إنّ كلّ هذا الدمار يحتاج إلى بعض اللون الأخضر من أجل خلق توازن في العالم.

كان يقضي جلّ وقته في شرب العرق والمتة وقراءة الكتب التي يجدها بين الأنقاض أثناء بحثه عنها. أهداني أول كتاب وجده. كان اسم الكتاب "ترجمة البازلت" كان كتابك يا سليم. قال إنّه يحبُّ هذا الكتاب. كتب لي إهداءً بالكرديّة على الصفحة الأولى ما

ترجمته: "إهداء إلى أخي وضيفي دلير". هذا من أغلى الكتب على قلبي اليوم. يا له من كتاب! يا لها من ذكرى!

حكايتي الثالثة شخصيّة جدًا وأنا مترددٌ قليلًا إن كنت سأبقيها بعد أن أكتبها أم لا. صديقتي حامل الآن ونحن ننتظر طفلة تملأ حياتنا وتشغلنا بنفسها عمّا حولنا. الأطباء يقولون إنّ الجنين يسمعنا ويتوجب علينا الحديث مع هذا الجنين. سألت طبيبتنا الخاصة: هل أقرأ لها؟ قالت لي: نعم القراءة تُفيد في توسيع مداركها. صرت أقرأ لها أشياءَ من علوم مختلفة، وكلّي أمل أن أستمرَ بالقيام بذلك حين تُخلق وتكون رضيعةً ومن ثم طفلة ذكية.

ديوانك، "الغزلية الكبرى"، هو من جملة ما أقرأ لها. كل يوم أقرأ لها مقاطع من غزليتك. أقول لنفسي: من لا يحب الشعر لا يعرف شيئًا، أريدها أن تحب الشعر. أقرأ لها "عاشقاتٌ هُنّ، بقلوبٍ أو من دونها" وأقول لنفسي: إنّ هذا الشعر يوسّع المدارك أيضًا.

قررت في هذا العام قراءة ما فاتني مما كتبت؛ فقرأت: الريش، طيش الياقوت، سبايا سنجار، هياج الإوز، المثاقيل، السيل، السماء شاغرة فوق أورشيلم، بجزأيها. لقد أبهرتني. كيف تستطيع أن تكتب بهذه البلاغة والكثافة والكثرة. من أين تأتي بلغتك ومن أين تأتي بخيالك؟ حقيقة، إنّني أغار منك. وحقيقة أخرى هي إنّني أتعلم

منك. أتعلم أن أكتب بكثرة من دون هدف سوى الكتابة. أتعلم أن أحترم القارئ، وأن أضع نصب عيني بأنّ أحدًا ما، أذكى مني، يقرأ ما أكتب، فأبذلُ أقصى ما أستطيع من أجل إخراج أفضل ما عندي.

إن سألني أحدهم يومًا ما لماذا تكتب إذًا؟ مثلما سأل التاجر كرياكوس المقاتل توران في رواية السماء شاغرة فوق أورشيلم: لماذا تحارب، إذًا؟ سوف أجيب في محاكاة لإجابة توران وأستبدل فعل الحرب بفعل الكتابة وأحذفُ فعل الربح: "أكتبُ من أجل الكتابة".

إلى شخصيتي الروائيّة المفضلة

منذ أسابيع وأنا مصاب بأرق لا أعرف له سببًا محددًا؛ لا أستطيع النوم ليلًا فتَغزوني أفكار كثيرة خلال هذه الليالي الطويلة وحين أنام بعد طول تعب أحلمُ كثيرًا. لا أذكر أنّني حلمتُ بهذا الكم من قبل. أحلامٌ غريبة من هنا وهناك. أحلام لا تفسير لها. أحلام عن كلّ شيء وعن كلّ شخص أعرفه. منذ ثلاث ليالي لم أحلم إلا بكِ. أحلام غريبة لا أذكر معظمها لكنني أذكر أنّكِ جزء منها. لا أملك تفسيرًا لاحتلالِك نومي المتعَب.

حاولتُ أن أكتب هذه الأحلام من دون جدوى، لم أتذكر معظم تفاصيلها، وما أتذكره غريب. سألتُ نفسي: لماذا لم تحلم بها من قبل بهذه الكثرة؟ على الرغم من السنوات الطويلة التي قُدّرَ لنا أن نعرف بعضنا فيها لم أحلم بك مثل هذه الأحلام. ما الفرق بين الحلم واليقظة؟ أ ليست دائرة مغلقة كلما مشينا فيها وصلنا إلى نقطة البداية؟ الحلم هو صورة الواقع والمدخل إلى اللاوعي حسب كارل يونغ، ونحن نسقي أحداث يقظتنا بشذرات من هذه الأحلام. هكذا يكون الحلم جزءًا من اليقظة والعكس صحيح كذلك.

أفكر بأنّنا قدر بعضنا البعض، إن كان للقدر وجود. لا فكاك لنا من بعضنا، أقول لنفسي، وفي اللحظة التالية أخاف أن أفقدكِ. أخاف أن أفقدك بشدّة، كيف يستطيع المرء العيش من دون نصفه الآخر، سأكون ناقصًا من دونك. ليس نقصان المشاعر والحب والحنان، بل هو نقصان أكبر. أخاف أن يموت نصفي فأحيا بنصف لا يكفي ولا يغني، هل تعرفين إنسانًا يعيش بنصف قلب؟ أنتِ نصف قلبي.

لو كنتِ تعرفين الرسم، مثلًا، لكنّا مثل توماس وسابينا في رواية كونديرا، كائن لا تحتمل خفته، على الرغم من أنّني أحسب نفسي شبيهًا بفرانز وليس بتوماس. لماذا لا تتعلمين الرسم؟ لا، ليس الرسم هو المقصود، ربما كان هذا التشبيه لأنّني كنت قد قرأتُ هذه الرائعة مؤخرًا وكنت أفكر بكِ طوال فترة قراءتها. في الحقيقة، أنا أراكِ في كلّ الروايات، كلّ شخصيّة روائيّة أنثويّة أقع في حبها أحسبها أنتِ، وما أكثر الـ"أنتِ" في هذه الروايات.

أنتِ شخصيتي الروائيّة المفضلة، على الرغم من أن لا شيءَ حقيقي أكثر منك. ما هو الفاصل بين الروائي والحقيقي؟ ما هو الروائي وما هو الواقعي؟ أ ليست الرواية مستمدة من الواقع، يأخذها القارئ ويعيش أحداثها بينه وبين نفسه ومن ثم يعيد تمثيل هذه الشخصيات الروائيّة، أو أجزاء منها، في الواقع فتكون الدائرة

مغلقة تمامًا لا منفذ منها؟ ربما يكون الفرق فقط في التوقيت. وما هو الوقت؟ يقول سليم بركات: "هذه قافلة تمشي في برزخ، لا أزل وراءها، ولا أبدية تُدّامها. الوقت فجوة".

أكتب هذا النص وأنا أستمع لموسيقى يوهان سباستيان باخ وبالتحديد لـ Cello Suite no 1. أحسّ بضربات أوتار آلة التشيلو في قلبي. أغمض عينيّ لثوان أرى نفسي فيها معك في سنة ١٨٠٣ في إحدى القصور النمساويّة. أطلب منك الإذن بالرقص. نحرّك أجسادنا على وقع الموسيقى بتحفظ. أقتربُ منك وأهمس في أذنك اليمنى: لقد أحببتكِ قبل أن تولدي. أفتح عيوني على الواقع فأقول لنفسي إنّ حلم اليقظة هذا جزء من واقعي. أغمض عينيّ مرة أخرى فأرى نفسي في باريس أجلس على ضفة السين وأقرأ كتابًا لفيكتور هوجو، أرفع رأسي فأراك تقتربين مني. أعتقد أنّها سنة ١٩٦١. تعبرين بعد أن تلاقت نظرات عيوننا بابتسام. أهمس لنفسي: لقد أحببتها قبل أن أولد. أفتح عيني على واقعي مرة أخرى وابتسم لنفسي وأقول لها: سأتصل بها في الصباح. لا بأس في أن نلتقي في برلين خلال شتاء ٢٠١٧.

حين أفكر بكِ أبتسم. ذكراك وصورتك في ذهني تجعلني سعيدًا. ما أحلاكِ! الساعة الآن تقارب الرابعة صباحًا بالتوقيت المحلي وأنا لا أستطيع النوم. هل تعرفين أنّني أجيء إليكِ حين أتعب من

الحياة. يكفيني قضاء وقت قصير معك كي أعادِل أوزان حياتي المختلة. حتى إن لم نتحدث وكان اللقاء صامتًا، حتى وإن كان أحدنا مشغولًا عن الآخر بأشخاص آخرين أو أعمال أخرى، يكفي وجودك في نفس المكان ونفس الزمان كي أستعيد توازن روحي.

أماكن

حول المدفأة

حين كانت الكهرباء تُقطع في ليالي شتاء دمشق، كنّا نجلس بجانب بعضنا البعض حول المدفأة التي تعمل على مادة المازوت، نُلصق الخبز على حديد المدفأة ليُسخّن فنأكله حارًا طيبًا. وكانت جدتنا سلطانة تسرد علينا حكايات أطفال قديمة. حكاياتٌ كرديّةٌ قديمة.

كانت كل حكاية تبدأ بمقدمة، ترجمتها:

"كان ياما كان في قديم الزمان، رحم الله أمهات وآباء السامعين. يقال إنه كان هناك، رحمة الله على أمي وأبي وعلى أمهاتكم وآبائكم." ثم تسرد الحكاية وفي نهاية كلّ حكاية تقول: "هذه حكايتي لكم، فأعطوني شريحة من البطيخ الأحمر".

والحكايات متنوعة، منها ما يحكي عن البطولة والشجاعة والثورات ومنها أحداث تاريخيّة ومنها حكايات عن الحيوانات والحشرات. منها حكايات تتشابه مع حكايات الأقوام المجاورة ومنها حكايات كرديّة خالصة معتقة منذ مئات السنين.

يقول الياس خوري في روايته باب الشمس "إنّ القصص كالخمر، تتعتق حين تروى. جرار القصص روايتها." وهكذا هي

الحكايات الكرديّة. حكايات تروى وتروى فتصبح خمرًا يسكر به شعب الأكراد.

تقول جدتي إن هذه الحكايات، إضافة إلى الأغاني القديمة، هي ما حفظت اللغة الكرديّة من الضياع. ويقول آخرون إن "الكرديّ هو من يجيد الرقص ويستطيع التكلم باللغة الكرديّة" وما اللغة إن لم تكن حكايات تروى؟

ما زلنا، نحن الأطفال الذين كبرنا بعيدًا عن أهلنا، نحفظ هذه الحكايات عن ظهر قلب. نحفظ مثلًا حكاية محمد ابن العجوزة وحكاية الخنفساء والحكاية الطريفة حكاية القملة والقرادة التي تقول:

كان ياما كان في قديم الزمان، رحم الله أمهات وآباء السامعين. يقال إنه كان هناك، رحمة الله على أمي وأبي وعلى أمهاتكم وآبائكم. كان هناك قملة وقرادة. القملة كانت تغسل الثياب والقرادة تنشرها على حبل غسيل على الجانب الآخر من البيت. هطلت بعض الأمطار فماتت القملة بفعل هذه الأمطار. انتظرت القرادة ثيابًا جديدة لتنشرها، ولمّا طال انتظارها راحت إلى الجانب الآخر من البيت باحثة عن القملة، وحين رأت القملة ميتة قامت بقص ضفائر شعرها حدادًا على موت صديقتها. ثم ذهبت إلى مجرى

المياه، فصاح بها الماء: أيتها القرادة ذات الشعر المقصوص. فردّت القرادة نائحة:

أووه قرادة ذات شعر مقصوص

لقد أتى الخبر... ماتت القملة

ففاض مجرى الماء بمائه واستمر جريانه إلى أن وصل إلى أسفل شجرة خضراء وارفة. فسألت الشجرةُ الماءَ: لماذا تفيض اليوم أيها الماء؟ فناح الماء:

أووه مياه تفيض

قرادة ذات شعر مقصوص

لقد أتى الخبر... ماتت القملة

وهكذا تستمر حكاية الأطفال هذه، وهي حكاية قديمة، تطول أو تقصر حسب الراوي، وفي رواية جدتي لها يمر عابر طريق بالشجرة ومن ثم يمضي مارًا بحقل ذرة وفي اليوم التالي يأتي المزارع وتأتي ابنته التي تسرد القصة إلى أمها لاحقًا:

أووه ابنتك يغطي اللبن رأسها

والدها بمحراث في مؤخرته

ذرة معوّجة القرون

عابر طريق بعمامة خضراء

شجرة عاريّة

مياه تفيض

قرادة ذات شعر مقصوص

لقد أتى الخبر... ماتت القملة

فتلصق الأم مؤخرتها بالتنور. وتنتهي الحكاية مثل كلّ حكايات جدتي بجملتها المعتادة: "هذه حكايتي لكم، فأعطوني شريحة من البطيخ الأحمر".

لكن وفي مرات كثيرة كانت تقول لنا الجدّة حكايات أخرى؛ حكايات لا أعاجيب ولا طرائف ولا أساطير، حكايات حقيقيّة عنها وعن زوجها السياسي الهارب من حكومات تمنع الهواء عن الأكراد، حكومات تمنعهم من التحدث بلغتهم. تقول في إحدى الحكايات إنّ الملاحقات الأمنيّة على الأكراد قلّت بعد انفصال سوريا عن مصر ورحيل عبد الناصر عن الحكم فانتقلوا من القرية إلى مدينة القامشلي حيث وُلد ابنها الثالث. وبعد ستة شهور من ولادة الرضيع، سنة ١٩٦٤، عادت الملاحقات الأمنيّة إلى سابق عهدها فهربوا إلى قرية شُوْرِي إحدى قرى عشيرة الكيكان الكرديّة. اعتقدوا أن رجالات الأمن لن يعثروا عليهم في ظل الأوضاع الأمنيّة المضطربة والانقلابات وتسلم حزب البعث للسلطة.

لكنهم كانوا على خطأ، فقد داهم رجال الأمن بيتهم الطيني في أثناء تناولهم طعام السحور في إحدى الليالي الرمضانيّة. لم يكن زوجها، أي جدي، موجودًا في البيت. كسروا بوابة البيت ودخلوا. بقوا هناك حتى وقت الضحى. ضربوهم وشتموهم. ضربوا الأطفال، أكبرهم أبي وكان في التاسعة من عمره. ضربوا الأم برشاشاتهم وهي تحمل رضيعها.

كانت القرية الصغيرة فارغة، فبعد أن عرفوا بأنّ الأمن داهم أحد البيوت هربوا نحو الحقول والأراضي الزراعيّة المحيطة بالقريّة. هدد رجال الأمن الأم بأخذها مع أطفالها إلى سجن غويران في الحسكة. أوقفوهم أمام السيارة العسكريّة مع ثلاثة حرّاس واتجهوا نحو امرأة كانت تمر بالقرب من القرية وتحمل قربة ماء. سألوا المرأة عن جدي إن كانت تعرفه. فأجابتهم المرأة بعربية طلقة وبصوت جهوري بأنّهم عار على الجنديّة. فضربوها بقسوة وحطموا قربة الماء وأدموا وجهها. ركض أحد الفتيان الذي ظهر فجأة ليحمي المرأة من الجنود، صرخ عليهم بالكرديّة، لكنهم أمسكوه وضربوه حتى سال الدم من كلّه، طلبوا منه أن يضرب جدتي وأطفالها فرفض. قيّدوه وضربوه بشدّة. حاولت جدتي أن تدافع عن الفتى لكنهم ضربوها، وحطموا فك الفتى بأقدامهم إلى

أن اختلطت دماؤه مع دماء المرأتين. غادر الجنود منظر الدم هذا من دون أن يقولوا شيئًا سوى شتائمهم المعتادة.

حكايات مثل هذه لم تكن تنهيها سلطانة بجملة شريحة البطيخ الأحمر، بل بتنهيدة تخرج من أعماق قلبها. ويعم الصمت بعدها لدقائق حتى يكسره أحدنا بسيرة من أحداث يومه أو بطلب حكاية خياليّة أخرى. حكاية لا ألم فيها بل طرافة وضحك.

لم نكن نشبع من مثل حكايات الطرائف حتى أنّنا أحيانًا، كنّا نريد أن تسرد علينا جدتنا حكاية خلال النهار، لكن الجدّة عادة تكون مشغولة بأمور البيت التي لا تنتهي. في النهاية وبسبب ضغطنا عليها كانت تحكي لنا حكاية صغيرة، فتقول بعد مقدمة الحكاية: يقال إنّه كان هناك ثعلب، وهذا الثعلب كان يمشي، ومشى الثعلب ومشى ومشى ومشى... حين يعود الثعلب سأكمل لكم الحكاية.

وكنّا ننتظر الثعلب الذي لم يكن يأتي إلا حين انقطاع التيار الكهربائي في تلك المساءات البعيدة.[1]

١- هامش: حكاية القملة والقرادة هي حكاية أطفال قديمة، وتختلف من رواية لأخرى، ما ذكرته هنا هو رواية جدتي للحكاية التي سمعتها منها مؤخرًا. قمتُ بتعريبها مع تغيير بعض الكلمات لكنني حافظت على السياق العام وعلى الأحداث كما روتها جدتي. حكاية الأمن مع المرأة الكردية هي حقيقة حدثت لجدتي وأبي وقد سمعت القصة عشرات المرات. في هذا النص نقلت القصة من تسجيل صوتي لجدتي كنت قد سجلته معها سنة ٢٠١٣ في مدينة أضنة التركيّة.

السرفيس

في دمشق، كان الصاعد إلى السرفيس يلقي السلام على الجميع إن دخل خلال أوقات غير مزدحمة. أما حين يهجم الزحام على المدينة في ساعات الذروة، فعلى المرء القتال للحصول على مقعد، خاصة في الساعة التي تسبق موعد الإفطار الرمضاني. وإذا أردتَ التحديد أكثر فعليك بشارع الثورة، أكثر الشوارع ازدحامًا في المدينة.

السرفيس هو سيّارة بيضاء غالبًا، أحيانًا ملوّنة بدهان آخر كالكحلي الداكن مثلًا. سيّارة صغيرة تتسع لعشرة ركّاب من الخلف وراكبين بجانب السائق، وقد يكون هناك مقعدان زائدان في الخلف، خاصة في العربات المتجهة نحو البلدات الريفيّة، ليصبح مجموع الركاب خمسة عشر.

لهذه العربة المتنقلة بالبشر أسماء تختلف باختلاف المناطق، لكن أكثر الأسماء انتشارًا في سوريا هو: سرفيس أو ميكروباص، واختصارًا ميكرو. كان هذا الميكرو يطوف بنا أرجاء المدينة وبين المدن والبلدات القريبة. كانت الأسطورة تقول، حين كنّا صغارًا، إنّ السرفيس اختراع سوري، وهو موجود في سوريا فقط. حين

كبرنا عرفنا أنّ السيارة من إنتاج ألماني ومنتشرة في كلّ البلاد، وهي وسيلة نقل رئيسيّة في البلدان المجاورة. في تركيا مثلًا، وتحديدًا في إسطنبول كان الدولمش، كما يسمى هناك، في عداد وسائل تنقلي الرئيسيّة، خاصة في منطقة كادي كوي. في لبنان، كان للفان الرقم أربعة فضلٌ على تنقلي بين عين الرمانة والداونتاون وصولًا للحمرا. في مصر، كانت غالبية تحركاتي بالميكروباص، خاصة تلك التي تنتظر في بداية شارع جمال أو عند ميدان رمسيس.

السرفيس كان رفيق دربي اليومي حين كنت أعيش في الشرق الأوسط. عن طريق هذه الآلة المتحركة، أصل إلى جامعتي وعملي ومواعيد غرامي وسهرات أصدقائي، وإلى كلّ مكان أريد مقابل مبلغ زهيد من المال. وأعجب في كلّ مرة كيف كان يستطيع السائق العيش مقابل مبلغ كهذا.

تخيلوا رحلة طولها حوالي ٢٠ كيلومترًا من كراج العباسيين في أقصى شرق دمشق إلى كراج السومرية في أقصى غربها يقطعها خط "الدوار الشمالي"، مقابل ١٥ ليرة سوريّة للراكب الواحد - أي حوالي ٣٠ سنتاً أمريكياً - (هذه كانت التسعيرة حتى وقت خروجي من البلاد في العام ٢٠١١).

حكايات السرفيس لا تنتهي، فمن حوارات اجتماعية إلى أخرى دينيّة، فمشكلات بين الركاب والسائق، أو بين سائقين، أو مشكلة ما مع شرطي مرور. خلال رحلتكم، التي قد تطول أو تقصر، تصحبكم أغنيات الراديو بصوت عالٍ، من هيفاء وهبي إلى أم كلثوم مرورًا بكل ما لا يخطر على بال. أحيانًا تكون الدروس الدينيّة رفيقة دربكم، وخاصة دروس راتب النابلسي أو خطب حسن نصر الله. وقد يرافقكم صوت عبد الباسط عبد الصمد مجوّدًا القرآن.

حكايات السرفيس لا تنتهي، عراك، أحاديث ثقافيّة، تحرش جنسي بنساء أو بأطفال، أدعية السفر، كتابة رسالة حب أو رقم هاتف ما على المقاعد، مراجعة الدروس قبل الوصول إلى قاعة الامتحان، تعب الحياة بكلمات قليلة على لسان عامل أو عاملة عائدين إلى البيت بعد يوم عمل شاق، لذّة الحياة مرسومة على وجوه السكارى الراجعين إلى منازلهم في وقت متأخر من الليل، سائقون تعبون من كلّ شيء يعتقدون أنّهم عرفوا جميع أنواع البشر في سياراتهم التي تشق شوارع المدن الحزينة، عبارات تختصر فلسفة الحياة مكتوبة على جدران السرفيس، زينة يجمّل بها السائق عربته.

حكايات السرفيس لا تنتهي، سائقون يجتمعون في الموقف، يتبادلون الأحاديث كلّ يوم عن الرُكاب وعن عائلاتهم وعن شرطة المرور التي لا ترحم. ركاب متجهون إلى بلداتهم البعيدة منتظرين بتأفف اكتمال عدد الركاب كي ينطلق بهم السائق إلى بيوتهم بعد يوم طويل، شتم زحمة الشوارع في وسط المدينة ودرجة الحرارة المرتفعة فترة الظهيرة.

حكايات السرفيس لا تنتهي.

الكرنك

حين كنتُ صغيرًا، كانت عائلتي تعيش في مدينة القامشلي البعيدة عن كلّ شيء في سوريا، والتي كانت تُشبه بلادًا أخرى.

في ذلك الزمان، قبل أن تعود عائلتي للعيش في دمشق، كان بيت جدي يقع في منطقة ركن الدين في قلب العاصمة. كنّا حينها نزورهم كلّ سنة مرة أو اثنتين. رحلتنا الأولى تكون في الصيف وتمتَد لشهر أو أكثر. والثانية، إن حصلت، في الشتاء أثناء عطلة منتصف السنة الدراسيّة، وكنّا نسميها عطلة الربيع على الرغم من وقوعها في أواخر شهر كانون الثاني أو أوائل شهر شباط.

في تلك السنوات، كانت الباصات (ومفردها الباص، وهو الاسم الدارج في سوريا للحافلة) هي وسيلة المواصلات الرئيسيّة، بين المدن وداخلها. كانت رحلتنا التي تقطع حوالي ثمانمئة كيلومترًا في الذهاب ومثلها في الإياب تمتد لأكثر من تسع ساعات متواصلة جالسين فيها على كراسٍ ضيقة لا يستطيع الإنسان البالغ فيها مدّ قدميه بارتياح.

حينذاك، كانت شركة النقل الوحيدة هي شركة الكرنك. لا أعرف إذا كان أصل الكلمة عائدًا إلى معبد الكرنك أو غير ذلك. لم نكن

نعرف معنى الاسم. لا أعرف أحدًا كان يعرف معنى الاسم. رغم ذلك، كان هذا الاسم هو الأهم في رحلتنا تلك.

كانت باصات شركة الكرنك، ذات الشكل الغريب المضحك، ملوّنة بألوان بيضاء برتقاليّة، لا باب خلفي لها. فقط بابان في الأمام، واحدٌ للسائق وآخر على الطرف المقابل للركاب، ومثلها مثل كلّ باصات السفر كان للكرنك مكان لتخزين الأمتعة.

نصل إلى محطة انطلاق الباصات في الصباح. تستقبلنا صورة كبيرة لحافظ الأسد عند مدخل المحطة. نضع أغراضنا وحقائِبنا في أماكنها المخصصة داخل الباص ونحمل ما نحتاج إليه خلال الرحلة إلى أماكن جلوسنا. أثناء دخولنا الباص يتأكد موظف شركة النقل من أسمائنا وهوياتنا. نجلس في مقاعدنا المرقمة وننتظر الانطلاق.

ينطلق الباص من محطة القامشلي إلى محطة باصات "كراجات" مدينة دمشق. بعد حوالي خمس أو عشر دقائق من الانطلاق يقدّم لنا مساعد السائق، وهو الموظف الذي يجلس بجانب السائق، ومهمته الاعتناء بالركاب، بعض السكاكر رخيصة الثمن من باب الترحيب.

يسير الباص، بعد أن توّدعنا صورة حافظ الأسد، خارج القامشلي مارًا بالقُرى والأراضي الزراعيّة الممتدة على جانبي

الطريق. أذكر حين كنت صغيرًا، قبل موجات الجفاف، كانت هناك مساحات شاسعة من اللون الأخضر للمزروعات المختلفة ومساحات شاسعة من اللون الأصفر، لون سنابل القمح.

بعد ساعة من الزمن يصل الباص لمحطة توقفه الأولى، محطة باصات مدينة الحسكة. تستقبلنا صورة كبيرة لحافظ الأسد عند مدخل المحطة. يعلن السائق، أو معاونه، استراحة قصيرة لا تتجاوز الدقائق العشر تكفي لتدخين سيجارة واحدة. هذه الدقائق مخصصة أيضًا لصعود ركّاب جدد إلى الباص المتجه إلى العاصمة البعيدة.

حارات الحسكة وشوارعها فقيرة، لا شيء فيها مثير. لا أبنية، لا صروح، لا شوارع جيدة، لا شيء يمكن أن تراه من نافذة الباص في هذه المدينة سوى الفقر الذي يقفز من ثياب الناس وبيوتهم.

يُكمل الباص مسيره بين القرى الفقيرة والأراضي الزراعيّة. أتذكر لهفتنا، لهفة الأطفال الصغار، حين كنّا نمرّ بجانبِ قطعان الغنم والبقر. بعد ساعتين تقريبًا يصل الباص إلى مدينة دير الزور. تستقبلنا صورة كبيرة لحافظ الأسد عند مدخل المدينة.

كان نهر الفرات مبهرًا. حينها كان أكبر مسطح مائي عرفته. أنا الذي عشت طفولتي بين حارات السكن العشوائي في دمشق وبين

شبه الصحراء في القامشلي. يا له من منظر بديع! مياه غزيرة لا تنضب تتدفق أمامي.

كنّا نرى الجسر المعلّق، والذي تهدّم بفعل قصف قوات نظام الأسد سنة ٢٠١٣، واقفًا يشهد على ما يدور في المدينة من أحداث يوميّة. كانت شوارع المدينة، خاصة تلك المحيطة بمحطة الباصات، عريضة مقارنة بشوارع القامشلي والحسكة، لكن كراجات دير الزور كانت فارغة، وسيئة الخدمة مثل كلّ مؤسسات سوريا الأسد. كانت استراحة الباص والركاب تستغرق خمس عشرة دقيقة، أو عشرين دقيقة، حسب مزاج السائق. أتذكر دير الزور، من نافذة الباص وبعيني ذلك الطفل، مدينة جميلة.

ينطلق الباص عابراً الباديّة السوريّة، أو الصحراء كما كنّا نسميها، من أطرافها في دير الزور إلى طرفها الآخر بالقرب من دمشق، مارًا بقلب هذه البادية، مدينة تدمر. كان الطريق القديم يمّر بجانب المعابد والأعمدة الأثريّة. كان المشهد من ذلك الشباك ساحرًا. الجميع ينظر إلى تلك الآثار. أتذكر أخي الصغير، حينها كان يبلغ الثانية من عمره، وكان مسلسل العبابيد، الذي تدور أحداثه في مملكة تدمر، قد بدأ عرضه. كان الصمت طاغيًا في الباص والعيون شاخصة نحو الأعمدة الحجر حين صرخ أخي: ماماااا... وينها زنوبيا؟ وانفجر الركاب ضاحكين.

نصل إلى استراحة تدمر، وهي الاستراحة الرئيسيّة على طريق القامشلي-دمشق. تستقبلنا صورة كبيرة لحافظ الأسد عند مدخلها. وهي، أيّ الاستراحة، مؤلفة من مطعم وبضع محال تجاريّة تبيع بضاعة رخيصة وطعامًا للمسافرين. لا يحيط بهذه المحطة شيء سوى الصحراء. كنّا نتناول طعامنا هناك. ومثل كلّ استراحة سابقة كنّا ندخل إلى الحمامات الوسِخة لإفراغ أحشائنا مما بقي فيها من بقايا الطعام والشراب. بعض الركاب كان يشتري الطعام من هناك وغالبيتهم، مثل أفراد عائلتنا، كانوا يجلبون طعامهم من المنزل.

نعود إلى الباص بعد حوالي نصف ساعة من التوقف. روائح الطعام تخنق الأنفاس. يرّشُ معاون السائق معطرات الجو. يعود البعض إلى النوم، ويعود صوت الشخير إلى سابق عهده. يكمل الباص طريقه قاطعًا بادية الشام، من دون أن يحكي أيّ من الركّاب شيئًا عن سجن تدمر الرهيب الذي كنّا نمر بجانبه. بعد ثلاث ساعات نصل إلى محطة أبو الشامات. تستقبلنا صورة كبيرة لحافظ الأسد عند مدخل الاستراحة. استراحة خمس دقائق لدخول المرحاض وللتدخين.

كان يُقال سرًا إن مقبرة جماعيّة لمعتقلين، قضوا تحت التعذيب في السجون القريبة، موجودة في منطقة أبو الشامات. وكان يقال

كذلك إنّ نفايات نوويّة دفنت في هذه المنطقة. لا أعرف صحة هذه المعلومات.

يعود الباص إلى سيره. الشمس قد غرُبتْ. نصل إلى دمشق داخلين من شرقها. تستقبلنا صورة كبيرة لحافظ الأسد. ننبهر بأضواء الجبل، أضواء مناطق العشوائيات حيث بيت جدي الذي نقصد. ندخل دمشق الشام، مدينة عظيمة مقارنة بالمدن الخراب التي أتينا منها. حينها كنّا صغارًا. حينها لم نكن نعرف شيئاً عن العالم. لم نكن نعرف أنّ دمشق، أيضًا، مدينة خراب.

الهوندايّة

"رضاكي يا أمي"، "ربي ارزقهم ضعف ما يتمنون لي"، "ميلي عليا ميلي"، "يا ناظرلي نظرة حسد... شكيتك لواحد أحد"، "جرح تاني" وعبارات أخرى مأخوذة من مسلسلات أو من أغنيات هاني شاكر وجورج وسوف مرسومة على هوندايات ركن الدين بألوان رخيصة وخطوط مختلفة، معظمها سيء التصميم.

ركن الدين هو حيّ من أحياء دمشق الجبليّة والهوندايات -مفردها هونداية- هي سيارة بيضاء صغيرة غريبة الشكل تتسع لراكبين اثنين من الأمام ومن الخلف مفتوحة تتسع لركّاب كُثر أو تستخدم لنقل بضائع مختلفة وقد يتعلق بها الأطفال والشباب صغار السن نزولًا وصعودًا أثناء سيرها. في السنوات الأخيرة ظهرت الهوندايات المغلقة من الخلف والتي اختصت بنقل الركاب فقط، كما حرمت الأطفال من متعة القفز من وإلى السيارة.

هذه السيارة المتخصصة في مناطق دمشق الجبليّة وفي بعض البلدات والمدن الريفيّة تنتقل في حارات السكن العشوائي بسلاسة لا تقدر عليها أنواع السيارات الأخرى، سائقوها محترفون على الرغم من أنّهم لا يستطيعون القيادة في الطرق المرسومة

والمخطَطة بعناية. هم فوضويون من دون أن يعرفوا ما هي الأناركيّة وثائرون على أنفسهم وعلى مجتمعاتهم من دون أن يقرؤوا لمنظري الثورات.

سائقو هذه السيارات هم الفاشلون في المنطقة في نظر الكثيرين من أبناء هذه الأحياء، خاصة في نظر المتعلمين منهم. والسبب، كما أعتقد، يعود إلى أنّ معظم السائقين هم من غير المتعلمين كما أنّهم ليسوا من أصحاب المهن اليدويّة أو أصحاب المحال التجاريّة، فوجهة النظر فيهم، أقل ما يقال عنها إنّها نظرة متعجرفة متعالية.

أعرف بعض السائقين ممن حاولوا أن يعملوا في الكثير من المهن لكنهم فشلوا وكانت الهوندايّة هي الملجأ الأخير لهم قبل أن يُجَنّوا أو ينفجروا، نفسيًا ومجتمعيًا. هم ضحايا النظام المجتمعي السوري الذي أنتجَهم ومن ثم أهملهم. هم الوجه الحقيقي للمجتمع البائس المحطم. هم نتاج نظام التعليم المتخلف.

أذكر فيما أذكر من ذكريات البلاد، البلاد البعيدة عني كبعد الشمس عن سفينة غارقة في المحيط الهندي، أنّ سائقي الهوندايات كانوا من أكفأ الناس، يساعدون من يحتاج مساعدة في حمل الأغراض، يعينون العجائز في الوصول إلى بيوتهم، لا يتقاضون أجرة من الفقراء، يضربون المتحرشين بالبنات، على الرغم من

أنّ بعضهم قد يتحرش لفظيًا أو عن طريق النظر بفتيات المدارس، يساعدون في تجهيز أحد المحال الصغيرة التي قرر أحد أبناء الحارة فتحها، يساهمون في فضّ الخلافات والمشاجرات العرضيّة التي كثيرًا ما تحدث في هذه الحارات الخراب.

من الناحية الأخرى، كان هؤلاء من أكثر الناس الذين "يخيفون" من هم ليسوا من سكان الحارة بسبب سمعتهم السيئة، كما أنّهم من أكثر السائقين في دمشق تعرضًا للمخالفات المروريّة والملاحقات الأمنيّة، فهم سكان عشوائيات لا ظهر لهم ولا قوة إلا قوة الذراع التي لا تنفع في حالات كهذه.

كان هؤلاء السائقون، الذين تتراوح أعمارهم بين السادسة عشرة والستين سنة، يكتبون عبارات مختلفة على سياراتهم بغرض تزيينها، بعض هذه العبارات مشتركة بينهم وبين سائقي الشاحنات والتكاسي والسرافيس، وبعضها الآخر خاص بهم. كانوا يرفعون صوت الأغاني وهم يقودون عرباتهم أو حين ينتظرون أحد الركاب في واحد من مواقفهم. ومواقفهم الرئيسيّة في حيّ ركن الدين، الحيّ الذي انحدر منه، هي موقفٌ قرب الفرن الرئيسي وآخرٌ بجانب سوق الخضار وثالثٌ عند مدخل الحيّ المؤدي إلى مقبرة الشيخ خالد وموقف رابع في الطريق إلى جبل الأربعين وخامسٌ في مدخل سوق الشيخ محي الدين.

أذكر أنّ البعض كان يصفهم بقليلي الأدب وآخرون ينعتونهم بالفاشلين، لكن الصفة التي أحبّ أن أطلقها عليهم هي المجانين. مجانين هم لكن ليسوا كالمجانين الذين نعرفهم. كانوا مجانين بطريقة حياتهم ومجانين في استهتارهم ومجانين في طريقة تعبيرهم عن شخصياتهم المظلومة. كانوا مجانين في طريقة تزيينِهم لهوندياتهم ومجانين في العبارات التي يكتبونها على جدران هذه الهونديات.

قد تكون الجدران هي دفاتر المجانين في بعض المدن لكن في حارتنا كانت الهونديات هي مستودع أسرارنا وخزان ذكرياتنا ودفاتر مجانيننا. ولهذه الهونديات أحنُّ.

الحارة

جدران بيوت هذه الحارة، التي تحتل جزءًا من الجبل المطلّ على دمشق، غير مطليّة. بيوت سكن عشوائي مبنية على عجل لا ألوان زاهيّة لها. الرماديّ هو سيد الألوان هنا.

كنّا نلعب كرة القدم في هذه الشوارع الضيّقة التي لا تكاد تتسع لمرور شخصين جنبًا إلى جنب. كنا نخترع ألعابًا لا تكلف أهلنا الكثير. بيوتنا متلاصقة وبالكاد يعرف الغريب عنها حدود كلّ بيت، ويكاد كلّ شخص من الحارة يعرف شكل بيوت الآخرين من الداخل.

نلعب في كلّ مكان ونتعارك ونتضارب ثم نتصالح. كلّ رجال الحارة آباؤنا وكلّ نساء الحارة أمهاتنا، كلّ الشيوخ أجدادنا وكلّ العجوزات جداتنا.

كانت حارتنا إحدى الحارات التي تحمل الهويّة الكرديّة في العاصمة دمشق، لكنّها كانت مختلطة بشكل كبير. عائلات فقيرة من كلّ المحافظات عاشت هناك، عائلات فلسطينيّة وعراقيّة، طلاب، فنانون يبحثون عن فرصتهم نحو الشهرة، كتّاب

مغمورون، موسيقيون لم يجدوا طريق النجاح بعد، عاشقون تائهون.

كان يسكن في حارتنا مهربو سجائر ومهربو أسلحة وعناصر مخابرات. وكان في حارتنا ممثلون ومخرجون وكتّاب ومترجمون ولاعبو كرة قدم. كان في حارتنا الكثير من أساتذة المدارس والخياطين وأصحاب الدكاكين الصغيرة وأصحاب المهن والحرف اليدويّة.

وكان في حارتنا الكثير الكثير الكثير من العاطلين عن العمل، كما عاش فيها الكثير من المشاهير والكثير من السياسيين، خاصة من الأكراد والفلسطينيين.

كان الجميع فقراء، عائلات كثيرة تعيش تحت خط الفقر على الرغم من أنّ الحكومة تعتبرها من الطبقة الوسطى. وعلى الرغم من أنّ أفرادها لا يعتبرون أنفسهم فقراء.

تاريخ حارتنا حافل بالأحداث، كانت خارج دمشق حين كانت الغوطة تحيط بالعاصمة فتخاف قوات الأمن الاقتراب من المنطقة وكان "كبارية" الحارة هم من يحلون المشكلات العالقة، ولكنها أصبحت في قلب المدينة حين امتد الاسمنت ودمّر الغوطة وأصبحت عناصر الأمن والمخابرات تتغلغل بين بيوت هذه المنطقة.

حارتنا كانت تشبه كلّ شيء في هذا العالم، ولكنها لم تكن تشبه إلا نفسها.

رسم الطحين

كنّا نجتمع في ساحة الأمويين -واحدة من الساحات الرئيسيّة في دمشق- في الساعة التاسعة صباح كلّ يوم سبت. مجموعة مؤلفة من حوالي عشرين شابًا وصبية، معظمنا طلاب جامعيون أو شباب تخرجوا حديثًا، ننتظر السرفيس الذي كنّا قد اتفقنا معه مسبقًا على أن ينقلنا إلى قرية رسم الطحين التابعة لمنطقة سعسع في محافظة ريف دمشق، والتي تبعد حوالي ٥٠ كيلومتر عن مكان تجمعنا في دمشق.

تقع القرية على الطريق العام القديم الواصل بين مدينتي دمشق والقنيطرة، ولا يتجاوز عدد سكانها المئات، وهي قرية زراعيّة وفيها مدرسة واحدة. حينذاك كانت تنتشر في أراض هذه القرية خيام نُصبت على عجل، يقيم فيها نازحون سوريون هاربون من جفاف نهر الفرات في شرق البلاد.

اشتد الخناق على سكان محافظات الرقة والحسكة ودير الزور بعد سنوات من ندرة الأمطار والتصحر الذي بدأ يغزو أراضيهم الزراعيّة التي بدأت بالاختفاء تدريجيًا. الحكومة السوريّة وقتذاك لم تقم بمشاريع جديّة لجرّ المياه واستصلاح الأراضي وإيجاد

مشاريع صرف صحي، مما أدى لزيادة تلوث المياه الزراعيّة بنسبة ٥٩٪ حسب قول وزيرة البيئة وقتها. كلّ هذا أدى إلى نفوق أكثر من ٨٥٪ من الماشيّة في شرق وشمال شرق سوريا وهجرة عشرات الآلاف من سكان تلك المناطق إلى المدن الكبرى، كانت إحدى الإحصائيات قد قدّرت عدد النازحين السوريين حتى بداية سنة ٢٠١١ بحوالي ستمئة ألف نازح، وأولئك كلّهم عاملون زراعيون أصبحوا عاطلين عن العمل ولم توجِد الحكومة مشاريع لتشغيلهم.

كان هؤلاء يعيشون في بيوت صفيح وخيم سيئة منتشرة في ضواحي مدن حلب وحمص وطرطوس ودمشق. كان بالإمكان رؤيتهم والوصول إليهم بسهولة لولا العمى الاجتماعي الذي كنّا نعيش فيه. معظم السوريين حينذاك لم يكونوا على علم بهذه الكارثة بسبب الحظر المفروض من قبل الحكومة السوريّة على الحديث عنهم ومنع العمل معهم ولأجلهم، كما كانت تمنع وسائل الإعلام من الوصول إليهم.

كنّا نحن، مجموعة الشباب، قد تطوّعنا من أجل تعليم بعض هؤلاء الأطفال القراءة والكتابة، وذلك بمبادرة فرديّة من أحد الأشخاص المنحدرين من تلك المنطقة. وقع اختيارنا على المخيم

المقام في قرية رسم الطحين ومخيم آخر على مقربة منه، وذلك لسهولة الوصول إليهما ولعدد الأطفال الكبير هناك.

في البداية، كان عدد المتطوعين أربعة وفي الشهر الثاني أصبحوا عشرة ومن ثم زاد العدد قليلًا، كانت المهمة الأصعب في أولى جولات يوم السبت التعليميّة هي كسب ثقة الأطفال وعائلاتهم. كان علينا أن نقنعهم بأنّنا شباب لا ننتمي إلى أيّة جهة ولا نريد شيئًا منهم ومن الأطفال سوى تعليمهم القراءة والكتابة وحمل بعض ثياب التبرعات وبعض ألعاب الأطفال ولا مصلحة شخصيّة لنا. في البدء كانوا يخافون منّا، لكن مع الوقت عرفوا أنّنا قد جئنا لخدمتهم. بعد فترة من الزمن أصبح الأولاد ينتظرون قدومنا الأسبوعي بكلّ لهفة، كانوا يستقبلوننا كما يستقبلون العيد. لقد كانوا معزولين عن المجتمع المحيط بهم وعن سوريا وعن العالم.

في البداية اعتقدنا أنّ الحالة مؤقتة وستزول، لكن مع استمرار الكارثة ومع تعلق الأطفال بنا، بدأنا نشعر بمسؤولية كبيرة، خاصة أنّنا أصبحنا أصدقاء سكان هذه المخيمات. لقد تعلقنا بهم... كنّا نشتاق لهم.

خلال عملنا التطوعي في تلك المخيمات كان الأمل أن نُوصل صوت معاناتهم إلى الناس، حاولنا بشتى الوسائل إحضار وسائل

إعلام محليّة وخارجيّة من أجل الكتابة عنهم وتصوير معاناتهم، لكن سيارة المخابرات التي تستقبلنا كلّ أسبوع كانت تمنع الصوت والصورة من الخروج إلى العلن.

قبل وصولنا أو بعد وصولنا بدقائق كانت تصل سيارة المخابرات، العناصر أنفسهم ودفتر التحقيق الكبير نفسه. كانوا يحققون معنا في كلّ أسبوع؛ أسماؤنا، عائلاتنا، غاياتنا، منعٌ من التصوير أو الحديث إلى الإعلام وتحذيرٌ من المسِّ بهيبة الدولة، الدولة التي لم تطور خططًا تنمويّة لنصف مليون شخص من شعبها، الدولة التي بعد شهور قليلة بدأت حربًا مفتوحة ضد هذا الشعب.

مرة، جاء عناصر المخابرات متأخرين ويبدو أنّهم لم يكونوا بمزاج لائق للتحقيق، وبالصدفة كنت اجتمع مع الأطفال الذين أعلمهم أمام الخيمة الأولى في مدخل المخيم. رآني العنصر وناداني: عمي دلير أنتو نفسكم تبع الأسبوع الماضي؟ أجبته بنعم فبدأ يكتب بنفسه الأجوبة التقليديّة عن أسئلة الأسبوع التقليديّة من دون أن يسألنا.

هذه هي عناصر صورة سوريا الأسد:

أطفال مخيم رسم الطحين لا يتلقون أيّ تعليم، حتى المدرسة الوحيدة في القرية لم تكن تستقبلهم وتتعامل معهم بعنصريّة كبيرة.

رجال هذا المخيم يعملون في الأراضي الزراعيّة المجاورة بأجر يومي متوسطه خمسون ليرة سوريّة (ما يعادل دولار أمريكي واحد في تلك الفترة) لا تكفي ثمن نصف وجبة طعام لعائلة مؤلفة، وسطيًا، من خمسة أشخاص.

الآلاف من نازحي شرق البلاد لا يلقون أذنًا صاغية لشكواهم.

مخابرات تتحكم بالماء والهواء.

سوق القرماني

في يوم ما كان في وسط مدينة دمشق سوق، وكان هذا السوق يدعى "سوق القرماني" نسبة إلى حمام القرماني الأثري الذي يقع هناك.

في يوم ما كان هذا السوق هو المكان الأكثر اكتظاظًا في دمشق. حينها كانت السلع فيه أرخص من السلع في كلّ الأسواق الأخرى. وكان بإمكانك شراء ما تريد من حبة الفستق حتى أكبر قطعة من أثاث البيت.

في يوم ما كان يوجد سوق، وكان هذا السوق يقع بين بناء يلبغا، البناء اللغز ذي الأحد عشر طابقًا والذي بُني في سبعينيات القرن الماضي ولم يُنجز بعد، وبقي كأبرز آثار الحقبة الأسديّة، وبين جسر الثورة، وهو الجسر الممتد بين سوق الخجا ومدخل قلعة دمشق. والجسر يفصل بين سوق القرماني ومدخل منطقة ساروجة من جهة وسوق الحراميّة وموقف الباصات الصغيرة (السرفيس أو الميكرو باص) التي تتجه إلى الغوطة الشرقية من جهة أخرى.

ملاحظة هامشيّة: أنا ومعظم أفراد عائلتي، الأكبر مني عمرًا، من جهة والدي، قضينا سنوات طويلة في هذا السوق لأنّ جدي كان يملك أحد المحال التجاريّة هناك وكنّا نتناوب على العمل فيه.

في البداية ولسنوات طويلة كنّا نبيع الألبسة المستعملة (البالة) ومن ثم بدأنا بيع الجلديات والجوارب وأخيرًا الثياب الجديدة. اسم الشارع الرسمي، الذي يقع فيه السوق، هو شارع الاتحاد، لكن معظم الناس كانوا يستخدمون اسم شارع الثورة نسبة إلى اسم الجسر. هذا الشارع هو أكثر شوارع المدينة اكتظاظًا. كانت النكتة تقول إنّ شارع الثورة قد هرب من الهند، نسبة إلى الصور التي يراها السوريون عن الازدحام في بعض الشوارع الهنديّة.

كان السوق مقسمًا إلى أجزاء؛ ولنبدأ من الغرب حيث مجمع يلبغا: بعد المجمع مباشرة هناك السوق المسقوف والذي تنزل إليه من بوابته الأماميّة بخمس أو ست درجات. المحال صغيرة ومتنوعة وفيها كلّ شيء. أمام المدخل بسطات تصليح الساعات وباعة اليانصيب وباعة الخواتم.

فلافل المحطة كانت من أبرز علامات السوق. التواليتات العموميّة كانت نقطة يعرفها الجميع عند الباب الخلفي للسوق. إذا خرجت من الباب الخلفي تكون في منتصف سوق السمك وإلى يسارك سوق العصافير، وإلى الأمام قليلًا حمّام القرماني الأثري

وبعض الفنادق الرخيصة وصولًا إلى ساحة المرجة، مركز العاصمة دمشق.

بعد السوق المسقوف، بعض المحال التجاريّة أشهرها دكان يبيع أيّ قطعة بعشر ليرات سوريّة، وبضاعة هذا الدكان متنوعة لا حصر لها. بعد هذه المحال تظهر لك محال بيع ألبسة البالة، التي هدمت الحكومة جزءًا كبيرًا منها في بداية التسعينيات مما جعلها بعيدة عن الشارع العام بحوالي عشرة أمتار، وأمام هذه المحال، بسطات بيع البزورات. من ثم يظهر دكان كبير آخر يبيعُ أيّ قطعة بعشر ليرات سوريّة، ومن ثم محال تبيع بضائع مختلفة إلى نهاية الشارع وحتى الالتفاف يمينًا وصولًا إلى ميتم سيد قريش وإلى سوق العصافير من الطرف الآخر وإلى سوق السروجيّة ومدخل قلعة دمشق.

كان باعة البسطات في حرب كرّ وفرّ مع شرطة المحافظة الذين يصادرون ممتلكاتهم ولا يتركونها إلا مقابل مبلغ من المال. ويحدث في كلّ يوم تقريبًا أن ترى شابًا يقف على "مصطبة" عالية ويصفّر بأقصى ما يستطيع تنبيهاً لرفاقه بقرب سيارة الشرطة، فترى كلّ رجل يحمل بضاعته ويهرب فيها باتجاه ما أو قد يخبئها في دكان ما.

بائعو المشروبات الشامية المختلفة بثيابهم التقليدية من علامات السوق المميزة، فترى بائع العرقسوس يضرب "طاسات" الشرب بعضها ببعض معلنًا مروره، وترى بائع القهوة المرّة يصدر أصواتًا بفناجينه المزخرفة إيذانًا بقدومه، وترى بائع التمر الهندي ينادي بأعلى صوته: "تمر هندي بارد... تعا طفي الشوب يا يوب".

كان عدد العاملين في هذا السوق يُقدّر بالآلاف، وكان المكان منبعًا رئيسيًا للضجيج، الكلّ يصيح على بضاعته والكلّ يتحدث بصوت عال والكلّ يضحك والكلّ والكلّ والكلّ...

الحياة هناك صعبة، لكنها كانت توفر العيش الكريم لآلاف العائلات السعيدة بما تسترزق به من دكاكينها الصغيرة، المملوكة بمعظمها لأوقاف ميتم سيد قريش. كان كلّ دكان يدفع أجرة شهريّة لا تتجاوز مئة أو مئتي ليرة سورية للميتم الذي كنت أخاف دخوله حين كنت صغيرًا.

كنّا إن احتجنا مرحاضًا ذهبنا إلى التواليتات العموميّة في السوق المسقوف أو إلى حمامات جامع الورد الكبير أو حمامات مسجد المدرسة الدمشقيّة، وإن احتجنا مياهًا للشرب عبأنا الماء من المسجد أو الجامع أو الميتم، وإن احتجنا للطعام فهناك فلافل

المحطة، أو بائع السندويش في سوق الحراميّة أو بعض صانعي الخبز والفطائر والكعك في سوق ساروجة.

في يوم ما قررت رئاسة محافظة دمشق هدم سوق القرماني والمحال المحيطة به. أبلغوا أصحاب المحال والدكاكين قبل أيام قليلة بقرار هدم السوق. رفض الناس وتجمعوا وغضبوا وقدموا الشكاوى، لكن العمل بالقرار استمر، وبدأ الهدم ذات فجر باكر وسط استنفار عناصر قوات حفظ النظام خوفًا من تحرك بعض الذين قد لا يرضيهم ما يجري.

وعدت الحكومة أصحاب المحال والدكاكين بتعويضات، قالت إنّها سوف تعطيهم نقودًا كثيرة ثم قالت إنّها سوف تعطيهم أكشاكًا صغيرة في أطراف العاصمة ثم لم تنفذ أي وعدٍ من وعودها، وأصبح الآلاف عاطلين عن العمل لا مصدر رزق لهم.

يقول بعض الناس إنّ هذا السوق كان يشوّه جمال دمشق ونسوا أنّ هذا السوق القديم هو جزء من دمشق بحلاوتها وبشاعتها، فضلًا عن أنّه كان مصدر رزق لآلاف البشر.

كانت الشائعة تقول إنّ الهدم جاء بقرار من رامي مخلوف ابن خال الرئيس ومالك نصف البلاد، كان الناس يقولون إنّه ينوي بناء فندق ضخم هناك، لكن بعد الهدم وعند البدء بحفر أساسات البناء

تم اكتشاف آثار قديمة فنُهبت تلك الآثار، كما نهبت البلاد بأسرها، وتحول السوق إلى حديقة بشعة.

في يوم ما كان في وسط مدينة دمشق سوق، وكان هذا السوق يدعى "سوق القرماني"، وفي يوم ما هُدم هذا السوق وهُدم معه جزء من ذاكرتنا الجمعيّة في سوريا كما هدمت البلاد كلّها بعد عدد قليل من السنين، بفعل الأشخاص أنفسهم.

نادي الجهاد

هل سمعتم يومًا ما بنادي الجهاد الرياضي؟ أكاد أجزم بأنّ معظمكم لا يعرفه أو حتى لم يسمع به ذات نهار إلّا من اهتم يومًا بأخبار مدينة القامشلي، صدفة الشمال السوري.

نادي الجهاد المؤسَس في عام ١٩٦٢ لم يحرز بطولات دوليّة ولا بطولات قاريّة ولا حتى بطولات محليّة فقد حُرم من كل هذا، إذ كلما همّ بالفوز بلقب بطولة الدوري السوري كانت تنهال عليه عقوبات اتحاد كرة القدم فيحرم من رفع الكأس بنفسه ليحملها عنه نادي الجيش في معظم الأوقات.

لنادي الجهاد جمهور قلّ مثيله في تلك الأيام، أيام العز، في تسعينيات القرن الماضي. كانوا يقولون بأنّ الملعب يتسع لعشرين ألفًا من الجماهير إلّا إنّني أؤكد لكم أعزائي بأنّ قاصدي ملعب القامشلي كانوا يتجاوزون هذا العدد بآلاف كثيرة، ويقال بأنّ أعداد الجماهير في إحدى مباريات بعبع الشمال، كما كان يُسمى، مع نادي الجيش وصل إلى خمسين ألفًا معظمهم كان واقفًا يتابع ويشجع بحماسة غير مسبوقة على الرغم من الأمطار الغزيرة، إذ كان حينها الجهاد يتغلب على صاحب المركز الأول ويزيحه عن

عرشه ويتصدر الترتيب العام لأندية الدرجة الأولى للدوري السوري قبل أن تحذف منه النقاط الكثيرة بحجة شغب الجماهير فيعود نادي الجيش القادم من العاصمة البعيدة إلى الصدارة.

يوم الجمعة يوم مقدس في القامشلي إذا كانت مباراة النادي في المدينة، شباب المدينة بمعظمهم في الملعب وباقي الناس ينتظرون أخبار الفريق ويتحدثون عنه في الشوارع والبيوت. الجمهور يقف في الملعب يشجع والوقوف هنا ليس حبًّا بالوقوف فحسب بل لعدم وجود مدرجات كافية للجماهير، فبناء ملعب القامشلي لم يكتمل لأنّها مدينة مغضوب عليها، كانت المدرجات مؤلفة من طبقة واحدة وعلى جانبي الملعب فقط، خلف المرميين لم يكن هناك مدرجات فكانت الناس تقف محيطة بالملعب وكأنّها تشاهد مباراة في أحد الأحياء الشعبيّة.

تاريخ نادي الجهاد مليء بالأحداث المثيرة، ليس بالضرورة أن تكون أحداثًا رياضيّة فقط على الرغم من أنّ النادي كان قد صدّر عدد كبيرًا من النجوم، على سبيل مثالهم لا حصرهم: جومرد موسى، موسى الشماس، قذافي عصمت، هيثم كجو معشوق الجماهير وهداف الدوري السوري مرتين والذي خرجت المدينة عن بكرة أبيها في جنازة لم تشهد لها القامشلي مثيلًا حين رحل بحادث سيارة وهو متجه برفقة فريقه لخوض مباراة في إحدى

منافسات دوري الدرجة الثانية والتي بدأ النادي اللعب في تلك الدرجة بعد عقوبة رياضيّة جديدة.

أحداث الجهاد التي تعلق بالذاكرة كثيرة، كذلك اليوم الذي "نطح" فيه قذافي عصمت الحكم جمال الشريف بعد أن طرده من الملعب بغير وجه حق، وفي مرات كثيرة قبل عصر الاحتراف كنت ترى لاعبًا بين شوطي المباراة يبيع "باكيتات الدخان" للجماهير، أو كنت ترى لاعبًا متأخرًا عن المباراة لأنّه لم ينه عمله مبكرًا، وكانت الجماهير تعشقهم. لا يلعبون سوى من أجل اللعب ومن أجل المدينة وجماهيرها إذ لا مال هناك مقابل اللعب، هناك لا يوجد شيء سوى حبّ الجماهير.

نادي الجهاد التي بدأت في إحدى مبارياته انتفاضة الأكراد السوريين في العام ٢٠٠٤ منذ ذلك الوقت ولم يرَ الجهاد النور، فنادي رياضي محسوب على أكراد البلاد غير المعترف بهم لا يمكنه أن يرفع رأسه بعد أن أعلن عدم صمته مجددًا.

نادي الجهاد، سفير الشمال الذي قال لا لهيمنة أندية السلطة وأزعجهم لن تذكره كتب التاريخ ولن يُخرِج أحدٌ ما على القنوات الرياضيّة الفضائيّة الكثيرة تقريرًا عنه ولن تُكتب في الصحف والمجالات مقالات عنه، لكن لا يهم، ما دامت ذكراه عالقة لا تمحى في قلوب جماهير القامشلي فنادي الجهاد سيبقى أبدا.

شارع بيتي البرليني

يتفرع شارع بيتي من شارع مليء بالمطاعم العربيّة ويسميه العرب عادة شارع العرب على الرغم من وجود مطاعم ومحال تجاريّة تركيّة وإيطاليّة وألمانيّة فيه لكن يبقى هذا الاسم هو المفضل على اسمه الحقيقي، جادة الشمس Sonnenallee. شارع بيتي هذا يعتبر من أفقر الشوارع في حيّ نويكولن البرليني، وهو خليط عجيب غريب من البشر والجنسيات والعادات والمطاعم والبارات.

يُقال إنّ هذا الحيّ، أي نويكولن، هو حي المهاجرين وهو مكان تحركات عصابات الشباب العنيفة وعرين سارقي السيارات وبيت بائعي الحشيش والمخدرات. سمعة الحيّ سيئة جدًا، لكن هذا ليس حقيقيًا تمامًا. ميزات الحيّ أكبر من سيئاته بدرجة كبيرة. منطقة متنوعة، طعامها لذيذ ومطاعمها رخيصة، لا تشعر بأنّك غريب عن شوارعها حتى لو انتقلت للعيش هنا منذ يومين. في الحيّ شوارع تشبه شوارع القاهرة وبيروت وشوارع تشبه شوارع أمستردام وأخرى تشبه شوارع أيّ مدينة ألمانيّة أخرى.

نويكولن هو حي التناقضات. في شارع بيتي بار يرتاده محليون لا يحبون الغرباء وفي الجهة المقابلة بار زواره من الهيبسترز الذين لا يتحدثون الألمانيّة. فيه مطعمين شهيرين للخضريين، أولئك الذين لا يأكلون أي منتج حيواني، وفيه تجمعات مافيويّة أو على الأقل هذا ما تحسّه. في المساءات يقف بعض الشبان المراهقين في زوايا الشارع، منظرهم يتنافى مع صورة الشوارع الأوروبيّة التي كنّا نتخيلها قبل أن نأتي إلى هنا.

شارعي هو برلين صغيرة تُسمع فيه لغات مختلفة بلهجات كثيرة لأناس جاؤوا من جهات الأرض الأربع، العربيّة والإيطاليّة والتركيّة والكرديّة والألمانيّة والإنكليزيّة والإسبانيّة والصربيّة والروسيّة والعبريّة وعشرات اللغات التي لا تعرف وقعها على أذنيك لأنّك لم تسمعها قبلًا.

في زاوية الشارع دكان صغير يبيع سندويشات دونر وشنيتزل سيئة الطعم مصنوعة على عجل. معظم رواد هذا المطعم هم سكارى آخر الليل أو المتقاعدون والعاطلون عن العمل الذين يبدؤون شرب الفودكا في العاشرة صباحًا. أحد العاملين في هذا الدكان هو رجل، أغلب الظن أنّه تركي، يتحدث بلغة ألمانيّة ثقيلة مكسورة القواعد، حين يكون مزاجه رائقًا يغني بصوت عالٍ

لزبائنه ويمزح معهم بصوت عال غريب، يثير الضحك والهلع والحزن سويّة.

أبنية شارعي البرليني ملونة مثل كلّ البيوت الأوروبيّة، بناء أحمر وآخر أبيض وثالث أصفر، تشعرك بالألفة في الصيف حين تكون الشمس طالعة، لكن في أيام الشتاء الطويلة، حين لا نرى الشمس إلا نادرًا، يكون الشارع بأبنيته موحشًا، عكس ما يدور من حياة داخل بيوته، وخاصة أنّ برلين مدينة غير مُضاءة مثل المدن الكبيرة. برلين أشبه بقرية كبيرة، وهذا يعطيها رونقها الخاص من بين كل العواصم الأوروبيّة الكبيرة.

أجلس الآن على طاولة مطبخي وأنظر من الشباك إلى الظلام الذي يتمدد في الخارج على الرغم من أن الساعة لم تتجاوز الرابعة عصرًا بالتوقيت المحلي، إن استطعنا تسمية ساعة الغروب عصرًا. هذا حال شهر كانون الأول في هذه البلاد. أتذكر اللحظة التي شعرت فيها بأنّني أعيش في أوروبا لأول مرة. كنت جالسًا على طاولة مطبخ بيتي القديم أتناول طعام الغداء وحيدًا أنظر من الشباك الكبير نحو هطول الثلج القوي في الخارج، حينها قلت لنفسي: أنت الآن تعيش في أوروبا. كان قد مضى ثلاث سنوات على اللحظة التي وطئت فيها قدميّ أرض مطار مدينة ميونخ، نقطتي الأوربيّة الأولى. وما لها السنين تمضي مسرعة!

أعود إلى حكاية شارعي وأترك أحاديث الذاكرة المثقلة بالتعب. ما الذي يميّز شارع بيتي؟ لا شيء. ربما عدم تميزه هو ما يميزه في مدينة برلين التي يسعى كلّ شخص للظهور والتميّز فيها، والكلّ يُطحن في هذه المدينة ويرفد نهرها الغني لتكون ما هي عليه. في الشارع صدام غير واضح بين سكان الحيّ القدماء والقادمون الجدد، لكلّ زاويته وأمكنته التي يرتادها، لذلك تتسع الفجوة بين القديم والجديد كلّ يوم، وهذا يحدث في كثير من مناطق برلين في السنوات الأخيرة.

صوت سيارات الشرطة والإسعاف لا يتوقف على مدار الساعة. لكن هذا ليس الصوت الوحيد هنا، ففي الأيام الرائقة، أي حين تكون الشمس مشرقة وتلك أيام قليلة في هذه البلاد، ترى موسيقيين يمشون في الشوارع السكنيّة، ومنها شارعي، ويعزفون من أجل المتعة ولا يتقاضون أجورًا على ذلك. بعض أولئك يعزف الكمان وآخرون يلعبون الموسيقى على آلة الأكورديون والبعض يستمتع بآلته النفخيّة، هؤلاء يدخلون السعادة إلى البيوت التي يمرون بها، أو على الأقل يدخلون السعادة إلى قلبي حين يكون حزينًا، وما أكثر حزن هذا القلب!

اكتشفت اليوم أنّ أصحاب المخبز الصغير ذو الخبز الطيب في الشارع عربٌ. عادة نتبادل حديثنا القصير باللغة الألمانيّة. اليوم

صباحًا حين دخلت إلى المحل المخبز سمعتُ السيدة العاملة هناك تتحدث باللغة العربيّة مع شخص آخر، فبادرت الحديث معها بالعربيّة. قالت لي إنّ شكلي لا يشبه متحدثي العربيّة، قالت: كنت أظنك إسبانيًا. قلت لها: كلنا أبناء متوسطٍ واحد فلا بأس ببعض الشبه. سُعدت باكتشافي الصغير وقلت لنفسي: الآن أستطيع شراء الخبز بالعربيّة.

أكوّن عائلة في البيت الذي أعيش فيه الآن. في هذا الشارع سوف تولد ابنتي الأولى بعد أسابيع قليلة. ستقول دائمًا، مهما ارتحلنا: في هذا البيت وُلِدتُ وهذا الشارع هو أول ما رأيت من هذا العالم الكبير. إذًا سيكون ارتباطي بهذا الشارع أبديًا.

آلبروغ

توقف الباص الصغير أمام بناء كبير نسبة إلى بيوت القرية التي أُرسلنا إليها. كنّا خمسة أشخاص؛ كرديّان من سوريا، امرأتان من اثيوبيا، ورجل أفغاني. قال لنا أول شخص رآنا، وكان سوريًا، "هل خدمت في الجيش؟ هذا المخيم يشبه العقوبة العسكريّة".

نزلنا من السيارة وأُدخلنا إلى غرفة فيها بعض المقاعد شبه المريحة. انتظرنا ونحن ننظر إلى وجوه بعضنا، لا نعرف ما ينتظرنا بعد قليل، لقد كنّا منذ ساعات قليلة في مخيم مؤقت في مدينة كارلسروه، يحوي عددًا كبيرًا من اللاجئين، والآن هنا، في هذه القرية الصغيرة على ضفة نهر الراين، على الحدود الألمانيّة السويسريّة، ننتظر مستقبلنا. يدخل لاجئون آخرون الغرفة ويخرجون من دون أن ينظروا إلينا، يبدو أنّهم يعرفون كلّ شيء هنا. انتظارٌ طويلٌ بدا كدهر. طُلب منّا بعد وقت ثقيل الدخول إلى الغرفة المجاورة. امرأة بيضاء في متوسط العمر تجلس خلف مكتبها ورجل ضخم وآخر يغطي الشيب رأسه ويبدو كأنّه المسؤول عن المكان.

بدأ الرجل حديثه بالألمانيّة التي لا نفهم منها شيئًا. قال كلمات قليلة، ربما كانت كلمات ترحيبيّة. ثم بدأت المرأة الجالسة خلف مكتبها بالحديث بإنكليزيّة لا يفهمها سواي، منّا نحن الخمسة. حكت عن المكان الذي سيكون بيتنا في السنوات القادمة وعنّ مهماتها الإداريّة وعن الأغراض التي ستُعطى لنا. قالت لنا إنّ اليوم هو الثلاثاء وهو اليوم المخصص للذهاب إلى السوبرماركت الوحيدة في القريّة واستلام الإيصالات الخاصة بكلّ منّا وشراء أغراض الأسبوع -كان كلّ لاجئ يحصل على إيصاله الخاص يوم الثلاثاء قبل الساعة الواحدة ظهرًا بقليل من الرجل المسؤول عن مخيمنا، والذي كان يقف خلف طاولة في مدخل السوبرماركت، وإن لم يحضر المرء لأسبوعين متتاليين يتم إخبار الشرطة ممّا، قد، يؤثر على ملف اللجوء الخاص بالشخص الغائب. كان يحق لنا شراء احتياجاتنا من طعام وشراب وأدوات تنظيف بهذا الإيصال حتى الساعة الثانيّة والنصف من ظهر نفس اليوم، وإلّا ضاعت علينا أغراض هذا الأسبوع، وقيمة هذا الإيصال تختلف من أسبوع إلى آخر لكنها تتراوح دائمًا بين ٢٥ و٣٣ يورو. علينا بهذه النقود أن نشتري كلّ ما يكفينا لمدة أسبوع كامل- في النهاية طلبت المرأة منّا أن ننتظر في الخارج على أن يدلنا لاحقًا الرجل الضخم على غرفنا.

انتظرنا. جاء الرجل الضخم بعد دقائق وطلب من المرأتين أن تتبعاه. عادوا بعد وقت قصير، ومروا من أمامنا حاملين أغطية وأشياء أخرى لم أتبينها. عاد الرجل مرة أخرى بعد أن أوصل السيدتين إلى أماكن سكنهم الجديدة وطلب منّا اللحاق به، أعطى كلًّا منّا غطاءً ووسادة وصحنًا وملعقة وشوكة وسكينًا وكأسًا ووعاءً للطبخ وجعلنا نوقّع على أوراق استلام هذه الحاجات، على أن نعيدها، أو ندفع ثمنها، عندما نغادر هذا المكان.

مشيت خلفه مع رفيقيّ. أدخلَ الألمانيُّ الأفغانيَّ إلى غرفة في الطابق الأرضي، ثم صعدنا معه نحن الكرديّان إلى الطابق الثاني. أدخلَ زميلي إلى غرفة وأدخلني إلى غرفة مقابلة. دخل الغرفة قبلي، نظر إليّ وأشار إلى واحدٍ من ثلاث أسِرة في الغرفة، وقال كلمات لم أفهمها. صاح الرجلان اللذان كانا بالغرفة بأصوات عاليّة، فهمت أنّهما يعترضان على مكوثي معهم. علا صوت الألمانيّ ومن ثم استدار إليّ بوجه غاضب وأشار عليّ بالبقاء هناك ثم خرج مغلقًا الباب خلفه. وجدت نفسي مواجهًا لرجلين لا يرغبان بوجودي، واقفًا في مدخل الغرفة الصغيرة ومعي حقيبة ظهري الكبيرة وفي جيب معطفي الذي لا يقيني برد هذه البلاد عشرة يوروهات، أعطاني إياها زميل غرفتي في كارلسروه، متقاسمًا معي العشرين يورو التي يملكها. قال لي أحدهما إنّ لا

مشكلة لهما معي، لكنهما لا يريدان شخصًا جديدًا معهم في الغرفة. قالوا لي بأنّ عليّ العودة إلى المسؤول عن المكان وإخباره بأن يجد لي غرفة أخرى.

عدت وقلت، فغضب الرجل الضخم. عدنا إلى الغرفة وقال لهما إنّني سأبقى على الرغم من إرادتهما. وضعتُ أغراضي الجديدة وحقيبتي فوق السرير. كانت الغرفة مربعة الشكل، تحتل النافذة الكبيرة نسبة إلى حجم الغرفة، معظم الحائط المقابل للباب، وأمامها وُضع تلفاز قديم اشتراه ساكنو هذه الغرفة بمبلغ زهيد، وكانوا، حين دخلت، يشاهدون نشرة الأخبار على قناة الجزيرة. على الجانب الأيمن مغسلة، وخزانة لها مفتاح، ستصبح خزانتي لاحقًا، وسرير طبقي، مثل أَسرّة السجون، كان السفلي من نصيبي. وفي الجانب الأيسر خزانة أخرى وسرير منفرد وبراد، وعلى الحائط الأخير الذي يحوي الباب يوجد رفٌّ عليه خبز وبصل وبطاطا. في وسط الغرفة كرسي كبير قديم مشقق يواجه التلفاز. غرفة صغيرة فيها أشياء كثيرة ويتقاسمها ثلاثة رجال. كان الآخران فلسطينيان سوريان، بعد شهور طويلة أصبحنا أصدقاءً، وقبل أن أغادر ذلك المكان قال لي أحدهم إنّني أفضل شخص سكن معه طوال حياته.

أردت أن أكتشف المكان، خرجت قليلًا. خفت من هذا المكان المجهول. عدت إلى الغرفة خائفًا من أن تضيع مني. لم يكن الرجلان هناك. جلست لدقائق فوق سريري الجديد أفكر بخطوتي القادمة. ماذا سأفعل؟ ماذا سآكل؟ أين دورة المياه؟ أريد أن أتبول؟ خرجت مرة أخرى باحثًا عن المرحاض؟ قابلت أشخاصًا من كلّ جنسيات العالم، هنود وباكستانيون نيجيريون وأفغان ومغاربة وإيرانيون وعراقيون وصوماليون، ناس من كلّ مكان. مكان صغير في قرية منسيّة في مكان بعيد يحتوي عشرات اللاجئين من أصقاع الأرض، ولا أحد يهتم بأمري. أين أنا؟ ومن أنا؟ لا أعرف أحدًا وأستحي أن أسأل عن مكان أتبوّل فيه.

دام بحثي عن هذا المكان دقائق طويلة إلى أن وجدت المرحاض في آخر الطابق الذي تقع فيه غرفتي. الآن أستطيع التفكير. عدت إلى الغرفة. وقفت في منتصفها لا أعرف ماذا أفعل. سمعت صوتًا في الخارج يحكي بالكرديّة ويسأل آخرين: "هناك كرديان أتيا اليوم هل عرفتم مكانهما؟" خرجت مسرعًا وقلت بالكرديّة أنا أحدهم والآخر في هذه الغرفة. رحب بنا الأكراد القدماء، قال أحدهم إنّ علينا التوجه بسرعة إلى السوبرماركت فالساعة تقترب من الواحدة وعلينا تسلّم إيصالاتنا من أجل شراء الطعام.

ماذا عليّ أن أشتري؟ وكيف ستكفيني هذه النقود القليلة طعامًا لأسبوع كامل؟ في ذلك اليوم وفي الأسابيع الأربعة اللاحقة علّمني قدماء الأكراد هناك كيفيّة شراء أشياء رخيصة جيدة تكفي أسبوعًا باليوروهات القليلة التي يعطوننا إيّاها. وصلت عند طاولة الدفع، وضعت مشترياتي أمام البائعة وأعطيتها الإيصال الخاص باللاجئين. أشارت إلى الكيس الفارغ الذي أحمله بيدي، فتشَته خوفًا من سرقتي شيئًا. لم تفعل ذلك مع باقي المشتريين الألمان. عرفت لاحقًا إنّهم يفعلون ذلك مع اللاجئين فقط، فهم لا يثقون بنا.

عدنا إلى البناء الذي سيكون بيتي لشهور طويلة وبيت آخرين لسنوات. قال لي أحد الأشخاص، الذي سيصبح لاحقًا أقرب أصدقائي في ذلك المكان وكان اسمه أحمد وهو كرديّ منحدر من منطقة عين ديوار الواقعة على الحدود السوريّة التركيّة العراقيّة، "ضع أغراضك في غرفتك وعدْ إلى هذه الغرفة، غرفته، سأصنع طعام اليوم على شرفك". وهكذا كان. بقيت أتناول الطعام في غرفة أحمد لمدة خمسة أيام إلى أن اعتدت الحياة في هذا المكان.

بعد أن طبخنا سويّة وتبادلنا الأحاديث المختلفة وأكلنا وشربنا عدت إلى غرفتي، وإلى زميليّ، من لم يرغبا بوجودي بادئ الأمر. تبادلنا أحاديث تعارفيّة صغيرة. تابعنا نشرة الأخبار. دخنّا بعض الماريوانا. أخرجت حاسبي المحمول وفلاشة الثري جي

وأوصلت اللابتوب الصغير الذي أعطاني إياه أخي، آخر مرة تقابلنا فيها في برلين قبل شهرين، بالإنترنت، الذي سيبقى أخي يدفع حسابه كلّ شهر حتى انتهت حياتي في ذلك المكان. كنت الوحيد بين لاجئي آلبروغ ممن يملكون كمبيوترًا وانترنتًا، كانت هذه رفاهية غير موجودة في ذلك المكان.

بعد ساعات قضيتها أتصفح الأخبار وأحكي مع حبيبتي التي كانت تعيش في القاهرة آنذاك، قررت النوم. كان نهارًا طويلًا مُتعِبًا. وضعت أغراضي في الخزانة. أدرت المفتاح في القفل. حملت المفتاح في يدي وتمنيتُ في سريّ ألّا أسرق. لم يكن المكان يوحي بالأمان. وضعت المفتاح تحت الوسادة. التحفتُ غطائي الجديد، وبصمتٍ بكيتْ.

مرآة الكون

يا حيف دارنا يا حيف

يا حيف داريا يا حيف

جيت اسألك عن الحبايب...

لقيتك عم تسألِيني على اللي غايب

جبتلك زريعة من ساروجة

يا دارنا يا دار...

زرعت فيك مشمشة وشجرة زيتون

وورد من كل صنف ولون

ما احتجت حدا فيك يا دار...

كنتِ ساترتيني وعم تطعميني وعم تسقيني

يا دارنا يا دار...

يا دارنا يا دار[1]

كانت جدتي تبكي. حبيبة أخي كانت تبكي. أمي تبتسم. كنَّ يقفنَ أمام الباب الخشبي الأحمر الكبير، باب بيتنا. كانت دموعي جاهزة للسيلان، أدرتُ وجهي. حقيبتي الصغيرة على كتفي وأخي الكبير

[1]- «ترنيمة لسيدة من داريا، كانت تغنيها بصوت منخفض حين مرّ الباص الذي تستقله من منطقة السومريّة المجاورة لمدينة داريا في ريف العاصمة السوريّة دمشق. حينها رأت هذه السيّدة القصف والدخان المتصاعد من بيوت داريا، وكان ذلك في عام ٢٠١١». هذه الترنيمة منقولة من الكتاب البديع «رسائل من سوريا» لوجدان ناصيف.

يستطلع الطريق. نادتني أمي. رشَّت الماء على الدرج البلاط. قالت: "هذا الماء من أجل أن تعود إلى هذا المكان". أدرتُ وجهي وشعرتُ بمُلوحة الدمع على خدي.

هذه هي الصورة الأخيرة لبيتنا، لبيتِ عائلتي، للبيت الذي كبرتُ فيه، لبيتِ الشام. هذه الصورة الأخيرة لجَدتي وأمي وحبيبة أخي في دمشق. لم أرهم هناك بعدها. لقد تركتُ البلاد في تلك الليلة.

أعيشُ الآن في برلين. برلين مدينة حبيبة. أعرفها جيدًا هذه المدينة، أعرف شوارعها ومطاعمها وباراتها وحاراتها. لي كثيرٌ من الأصدقاء، لي كثيرٌ من الذكريات، لي كثيرٌ من الحكايات هنا. كيف مضت كلّ هذه السنوات!!

صحيحٌ أنّني سافرت كثيرًا وعشتُ في بلاد أخرى لفترات قصيرة ودرستُ في مدن عديدة وعملتُ في مناطق كثيرة: هولندا، تركيا، فرنسا، لبنان، سوريا، الأردن، مصر... إلا أنّ بيتي كان هنا؛ منذ أكثر من ست سنوات لم أغيّر عنوان بريدي، حبيبتي ألمانيّة، ألعبُ كرة القدم مع أصدقاء ألمانيين، أشاهد أفلامًا ألمانيّة، "أنا برليني أكثر من كثير من الألمان"، يقول بعض أصدقائي الألمان.

برليني ولكن...

أسئلة كثيرة، عن الوطن والمنفى، تدور في رأسي الآن.

سألني أحد الحاضرين عرض أحد الأفلام التي قمت بإخراجها، خلال النقاش الذي جرى بعد مشاهدة الفيلم الذي عنوانه "منفى" ما هو المنفى بالنسبة لك؟ وهل تشعرُ أنّكَ في الوطن هنا في برلين؟ لم أستطع الإجابة بشكل مباشر، تحدثت عن الوطن والذكريات والهويّة بشكل عام، لم أستطع القول إنّ دمشق هي الوطن ولم أستطع أن أقول: برلين هي الوطن.

ربما هو هذا الوقت، بالتحديد، الذي يجعلني أشعر بالفراغ والوحدة ويدفعني إلى الكتابة، ربما هو الوقت... ربما.

برلين، المدينة الحبيبة. أحبُّ هذه المدينة بكلّ ما فيها من تناقضات وجنون. أعرفها جيدًا، أو هكذا أُقدّر؛ لي بيت وعمل وحبيبة وأصدقاء كثر هنا. لي مقاهٍ وبارات ومطاعم، يعرفني العاملون فيها ويعرفون ماذا سأشرب وأيّ طعام أشتهي لكثرة ترددي عليها. باختصار أشعرُ وكأنّ هذه المدينة هي بيتي.

في الجانب الآخر، أنا من بلاد أخرى. بلادٌ خراب. أشاهد كلّ يوم أخبارًا قادمة من هناك، أرى صور أشلاء وجثثًا وبيوتًا مهدمة ودماءً تسيل بكثرة. لي أصدقاء مغيبون في سجون الدولة الأسديّة. وأنا بنفسي خَبِرتُ كثيرًا من التجارب التي لا تمحى من ذاكرتي المقبرة.

أمشي أحيانًا في شوارع برلين الآمنة، في الشوارع المزدحمة، أفكر: ماذا سيحدث مثلًا لو انهار هذا البناء الآن ومات معظم من في الشارع واختلطت أشلاؤهم مع حجارة البناء المنهار؟! أفكر حين أكون راكبًا في الباص بأنّ الجسر الذي نمر فوقه سينهار الآن ويموت الجميع غرقى في مياه نهر الشبري الذي يجوب حارات برلين من دون تعب. أحيانًا أتخيّلُ نفسي وأنا في مكتبٍ ما أقذفُ قلم الرصاص في وجه الشخص الذي أمامي فأفقأ عينه. أتخيّلُ وأنا أتبضعُ في إحدى الأسواق المسقوفة من ذوات الأدراج الكهربائيّة الصاعدة النازلة أنّ طفلًا ما سيقع الآن على رأسه ويتطاير لحم رأسه الطري في كلّ اتجاه بفعل حركة الدرج التي لن تتوقف.

إنّني أقف على حافة الجنون.

كثيرٌ من الناس حولي، أبادلهم الحب والاحترام، لكنني أشعرُ بالفراغ وبالوحدة. أشعرُ بفراغٍ كبيرٍ في داخلي. أشعرُ بشيء أكبر من الثقب الأسود في داخلي يبلعني ويبلع مشاعري ويجعلني أعيش في قوقعة أو فقاعة خاصة بي. هذا الفراغ هو "شيءٌ" أصعب من الموت.

أحاولُ الهرب، لا أعرف مِمَ أهرب وإلى أين، لكنني أهرب. أهرب من الناس حولي؛ أقضي كثيرًا من وقتي في مشاهدة الأفلام

والقراءة ومتابعة كرة القدم، أقضي ساعات طويلة في المطبخ وحيدًا أصنع طعامًا لا وجود له في قوائم الطعام الجاهزة، أسلّي نفسي بألعاب أخترعها. علاقاتي الاجتماعيّة فاشلة وفي تراجع مستمر. علاقاتي العائليّة فاشلة وفي تراجع مستمر. صرتُ أخاف من تعقيدات العلاقات في هذا العالم، أنا الذي لا أخاف من شيء.

أسافر إلى أماكن لا أعرفها، هربًا من شيء ما. لا مال عندي. لا أملك شيئًا سوى بعض الثياب التي أستطيع أن أتخلى عنها بسهولة، أتركها وأرحل. أقابل أناسًا يشبهونني في أماكن سفري، لكنهم مثلي لا يستطيعون تغيير شيء في العالم... لا يستطيعون حتى تغيير حيواتهم.

أشتاقُ إلى دمشق، ربما لا أشتاق لها... لا أعرف. أشتاقُ إلى بيروت والقاهرة واسطنبول وروتردام، هذه مدن عشت فيها ولي فيها ذكريات جميلة. تبًا للعبة الذاكرة.

أحاول أن أكمل حياتي بشكل طبيعي، أقرأ، أشاهد كرة القدم، أشرب البيرة، أضحك، أبكي، أقول لنفسي إنّني خرجت من هذه الدائرة وإنّ حياتي طبيعية وإنّ حياتي المهنيّة ناجحة وإنّني أُحسَدُ على ما أنا فيه، لكن وفي لحظة واحدة ينهار كلّ شيء وتختفي هذه الأفكار في الثقب الأسود الذي يحتلُّ داخلي. في تلك اللحظة التي أنظر فيها إلى نفسي في المرآة، فأرى كم كبرتُ خلال سنوات

قليلة، في تلك اللحظة التي تسبق النوم، في تلك اللحظة التي أكلّمُ فيها نفسي. في تلك اللحظة أرى كم هي كبيرة المقبرة التي في قلبي، وكم كبيرٌ هو السجن الذي يشغل مساحة كبيرة من داخلي. في تلك اللحظة، أرى الجرح الذي لا يشفى.

هذا الجرح، هذا الوجع، هذه الندبة التي أحملها على وجهي لن ترحل مهما حاول أطباء نفسيون وأصدقاء نصحي بإكمال حياتي بشكل طبيعي، هم لم يعرفوا الوجع نفسه، ربما. هذه ندبة ستبقى مهما طال الزمن، لا عمليات تجميل تزيلها ولا مكياج يخفيها. هذه ندبة أراها كلّ يوم في المرآة. هذه ندبة أتمنى أنّني لم أُخلَق لأراها.

أنظرُ إلى وجهي مطولًا في المرآة. لي وجه طفلٍ قُتِلَ منذ قليل حين هبط ذلك الشيء من السماء ليفجر شارعه كلّه. لي وجه شيخ ضرير تعثَّرَ بمشيته حين وقعت القذيفة بالقرب منه. لي وجه امرأة تركض ماسكة يد طفلها وهي تعبر شارعًا مسرعة خوفًا من أن تكون سرعة رصاصة القناص أكبر. لي وجه أمي وهي تبكي فراق أولادها. لي وجه جدتي وهي تصلي داعية ربّها أن يستجيب ويرفع الظلم عن بلادها. لي وجوههم كلّها لكن لا وجه لي.

أرى في المرآة عمري الجديد، أرى كم كبرتُ وأسألُ نفسي: كم عمرك الآن؟ ثم أجيبُ: عمري الآن مئات المجازر المتفتحة في دمي كلّ حين، عمري الآن آلاف القتلى يتجولون في أحشائي

وآلاف البنادق التي تقتل الناس في كلّ نقطة من جسدي. عمري الآن ملايين الأرواح تسكن في غرفتي وتبحث لنفسها عن كلام تحدثني به، لكنّه يبقى في الهواء كلامًا بلا صدى. عمري الآن ما تفتّحَ من جراحٍ في جسدي وروحي، عمري الآن... وما يهم كم عمري إن كان القاتل لا يهتم؟ ألم يقل الشاعر رياض الصالح الحسين سابقًا: فلا تسألوا القتلة عن رائحة الدم.

في المرآة أرى جسدي جسرًا للعبور إلى مجزرة جديدة، ودمي هو سائل الحياة، من يسيلُ ليحيي القاتل الضاحك بأسنانه البيضاء التي يواظب على تنظيفها كلّما أنهى مجزرة. لي وجهٌ كالأرض كثير العمر والملامح مرّ عليه ألف ألف قتيل وبعض عشرات من القتلة مجهولي الوجوه. قتلةٌ يغسلون أيديهم قبل الطعام، ويقبّلون زوجاتهم ويلعبون مع أطفالهم بعد أن ينهوا المجزرة.

أخرجُ إلى الشوارع في مدينتي الحبيبة برلين، أمشي من غير هدف، أمشي وأمشي وأمشي. الشوارع في برلين عريضة، وأنا لا أحب الشوارع العريضة. أشتاقُ إلى دفء الشوارع الضيقة. مؤخرًا أصابني مللٌ من كلّ شيء، من نفسي ومما يجري حولي ومن العالم كلّه. أحسُّ بأنّ كلّ ما آمنتُ به وكلّ مبادئي ومواقفي لا تساوي شيئًا. أحسّ بأنّني سمكة تسبح عكس تيار مياه جارف. أ لم يقل أحدهم يومًا: أنا الصواب والعالم كلّه على خطأ. أحسّ بأنّني

الصواب وبأنّ معظم هذا العالم على خطأ. بعد دقيقة من هذا الإحساس أحسّ بخطئي وأطلبُ المغفرة من هذا العالم. أنا مَلِكُ التناقضات.

لقد تغيرتُ كثيرًا في برلين ذات السماء الرماديّة أغلبَ أيام السنة. هل للطقس تأثيرٌ على شخصيّة الإنسان؟ أعتقدُ ذلك. أنا شخصٌ مختلفٌ عمّا كنت عليه حين كنتُ في دمشق.

لا أعرفُ ماذا أريد، لا أعرفُ أين أذهب، أحسُّ بالضياع. أكره هذا العالم القذر الذي حرمني من الاستقرار. لا أعرف إن كان العالم سيتغير نحو الأفضل يومًا ما، لا يهمني ذلك. أشعرُ بأنّ كلّ من يحاول تغيير العالم لا يرى الصورة الكبيرة. العالم مكان قذر. لا أحاول أن أغيّر شيئًا سوى نفسي. أغيّرُ نفسي إلى ماذا... لا أعرف. أحب البشريّة كلّها وأكرهها في الوقت نفسه. أ لم أقل بأنّني مَلِكُ التناقضات؟ لم أرَ في حياتي شخصًا متناقضًا أكثر مني.

كأني أكرر نفسي، وكأنّني قد كتبتُ هذا الضياع عشرات المرات سابقًا. أتذكر نفسي أقول هذه الأفكار مئات المرات. لا جديد. منفى، ضياع، لا هويّة، لا وطن، لا استقرار، وفي خلفية المشهد فقدان يومي لأصدقاء وأفراد من العائلة والجيران بسبب الموت أو الاعتقال، المنتشرَين في البلاد الأصل.

أحفظ رقم هاتف بيتنا في الشام ورقم هاتفي المحمول السوري فقط. لا أعرف لماذا أحتفظ بهاذين الرقمين في ذاكرتي. كلّ شهرين أو ثلاثة أجربُ الاتصال بهما. حتى الآن الرقمان خارج الخدمة. لا أعرف كيف تتشكل الذاكرة، لماذا تنتقي أشياء معينة وترمي بأشياء أخرى في القمامة؟ هل تغيرت تشكيلات الذاكرة لدينا بعد كلّ ما حدث لنا؟ ربما.

بدأتُ محاولًا الكتابة عن الهويّة والوطن والمنفى وأشياء تشبه هذا، لكن الأفكار لا تطاوعني وها هي الآن تأخذني إلى الحرب الأهليّة اللبنانيّة، هل هناك جوانب متشابهة في الحالتين السوريّة واللبنانيّة؟ ربما. أتذكر قول الكاتب اللبناني إلياس خوري على لسان أحد أبطال إحدى رواياته «إنّ الحرب اللبنانية (بهدلت) الحروب». بمعنى أن الحرب اللبنانيّة كانت مبتذلة وحقيرة لدرجة أنّها شوهت سمعة الحروب. ماذا يمكن أن تقول تلك الشخصيّة عمّا يجري في سوريا؟ هل (بهدلنا) مفهوم الثورة والوطن والحرب؟

ها أنا ذا أطلق أحكاماً لا أؤمن بها. هل ذلك هو النتيجة الطبيعيّة للذلّ المتراكم في ذاكرتي؟ أنا لا أتذكر إلا الذلّ حين أتحدث عن الوطن. الذلّ الذي عشناه في سوريا الأسد، الذلّ الذي خبرناه. أتذكر صفعة أحد عناصر الأمن لرجل ستيني في شارع مكتظ

بالناس من دون أن يرفع أحدهم ناظريه عن الأرض. أتذكر هروب أصحاب «البسطات» من شرطي يريد رشوة صغيرة. أتذكر أستاذ التربية العسكريّة في المدرسة ومعاملته للطلاب كعناصر في جيشه. أتذكر وأتذكر وأتذكر. حقاً هل كان لنا وطن؟

أي وطن كان لنا؟ وطن لم يوفر لنا أبسط مقومات العيش؟ لا تعليم جيد ولا خدمات صحيّة جيدة ولا خدمات عامة جيدة وفوق كلّ شيء قبضة أمنيّة تحصي علينا أنفاسنا. ما هو الوطن مرة أخرى؟ حجارة وشوارع نعرفها ولعبنا فيها حين كنّا أطفالًا؟ أشخاص أصبحوا جزءًا من الذاكرة؟ ما هو الوطن؟ احتفالات وأهازيج وخطابات الرئيس؟ حدود جغرافيّة رسمت من قبل مُحتلين قبل أن يولد جدي بقليل؟ ما هو الوطن؟ لا جواب لدي. كيف تشكلت هويتي؟ مزيجٌ من خبرات ومدن وناس التقيتُ بهم في حياتي القصيرة. كلّ الأشياء التي مررت بها ساهمت بشكل ما. كلّ شيء بِدءًا من أمي العربية الشيعيّة العراقيّة وأبي الكردي السنيّ السوري وصولًا إلى حبيبتي الألمانيّة.

أشعر أن لا ترتيبَ طبيعيَ لهذا النص، لا مقدمة ولا متن ولا خاتمة. هو بالتأكيد ليس نوعًا متمردًا من الكتابة، ليس نوعًا من الكتابة الإبداعيّة. ربما هو نص ضائع يشبه حياتنا ويشبه أيامنا التائهة. بائسة هي حياتنا. بائسة تشبه مفركة بطاطا صنعها طالب

جامعي في سنته الأولى، إنّها تجربته الأولى في المطبخ. هذا النص بائس مثل هذه "الطبخة".

على كلّ حال يصعب اتباع ترتيب طبيعي لنصي هذا. نصي، تضحكني هذه الياء. نصي ملكيتي. هل هذا حقيقي؟ هل حقاً أملك النص؟ هل أتحكم به؟ إذا كان ملكيتي وأخاف عليه، لماذا أنشره في كتابٍ ولا أتركه على طاولتي ليكون ملكي؟ لماذا أشارك أملاكي مع الآخرين؟ هذا سؤال آخر لا أجد جوابًا له.

قد يكون لعنوان هذا الفصل، الذي اعتقدت أن لا علاقة له بالنص، علاقة ما بالنص. فلربما كان الأمر كما قدمه ميشيل فوكو حين شرح الهيتيروتوبيا: «توجد، والأرجح أن هذا حقيقي بالنسبة لكلّ الثقافات والحضارات، فضاءاتٌ حقيقيّة وفعالة مؤطرة في مؤسسة المجتمع عينها، هي في الوقت نفسه تمثل نوعاً من الترتيب المضاد للأشياء، فيها جميع الترتيبات الحقيقية الأخرى الموجودة في المجتمع وداخله، ممثلة جميعًا ومطعون عليها في الوقت نفسه: مكان يقع خارج الأمكنة كلّها ولكنه متحقق على الأرض، محليًا، في الوقت نفسه». فهل أكون أنا يا فوكو مرآة الكون؟ على كلّ حال، وفي وسط هذا الجنون، لن يغير عنوان نصٍ، لا أعرف إن كان سيُقرأ أم لا، شيئاً.

أستمعُ أحيانًا إلى إذاعات سوريّة، جديدة وقديمة، كرديّة وعربيّة. أريدُ أن أسمع أغنيات كنتُ أسمعها حين كنتُ هناك. أحاول أن أفهم كيف هي الأمور هناك الآن. ماذا يفعل الناس هناك؟ كيف يعيشون في ذلك البعيد؟ حين أستيقظُ في الصباح الباكر أو حين أبقى في البيت يقظًا في ليل عطلة نهاية الأسبوع، أبحثُ عن مواقع هذه الإذاعات على شبكة الإنترنت لأستمع إليها في بثها المباشر. هل أحاول أن أقلد عيش الناس هناك؟ هل لهذا علاقة بالحنين؟

هل سأعود يومًا إلى هناك؟ هل أستطيعُ العيش هناك مرة أخرى؟ هل أستطيع العيش في دمشق لو أُتيح لي الخيار؟ هل أستطيعُ التأقلم في مدينة القامشلي؟ لو امتلكتُ الخيارات، ولو لم أكن مجبرًا على المغادرة، أيّ المدن كنتَ اخترتَ للعيش؟ أسئلةٌ كثيرةٌ تدور في رأسي. أسئلةٌ لا أجوبة لها الآن عندي.

هل توفّرُ لي دمشق الحريّة التي أريد؟ هل سوريا هي البلاد التي أستطيع العيش فيها بحريتي، أفعل ما أشاء وأرتدي ما أشاء من ثياب وأتناول الطعام والشراب الذي أريد؟ هل أستطيع المشي كما أريد وأقبّل حبيبتي في المكان الذي أريد؟ هي بلادٌ جميلةٌ في عقولنا لكن هل هي جميلة حقًا؟ لا أتحدث عن الحريّة السياسيّة التي حُرِمنا منها بل أتحدث عن حريّة يوفرها ويضمنها لنا المجتمع كحقٍ أصيل في الحياة. هل حقاً أنتمي لذلك الكبت الذي اختاروه

لنا؟ لا أعرف. هل حقًا أنا هو الذي اختاره أبي وأمي أن يكون؟ هل أنا أنا؟ حقًا، لا أعرف.

أستمعُ إلى أغنيات جوان حاجو فأشعرُ بالوطن يُزهر في داخلي. أستمع إلى صباح فخري فأفرح وأشعر بحب شديد لتلك البلاد. هل للوطن علاقة بالأغاني؟ أستمع إلى موسيقى الجاز، fly me to the moon لفرانك سيناترا أو what a wonderful world للويس آرمسترونغ فأشعرُ بأنّني لست بحاجة إلى وطن. هل موسيقا الجاز تحطم الحدود؟ أفكر الآن بموسيقى نينا سيمون على الرغم من أنّني أستمع إلى إذاعة آرتا إف إم. أفكر بطريقة أستطيع بها التحرر من كلّ شيء، وأتخطى كلّ العوائق والحواجز التي تمنعني من العيش بحريّة.

يقودني النص مرة أخرى للحديث عن الحرية وعن الهوية، وهما موضوعان متصلان اتصالًا عميقًا. أعودُ فأفكرُ بالبيت الذي نشأتُ فيه، خليطٌ من شيوعيّة ودين إسلامي سني ولمسة شيعيّة خفيفة وإلحاد مستتر وتأثر بديانات الشرق الأقصى البوذيّة والهندوسيّة واليزيديّة، كل ذلك مع خلفية قوميّة كرديّة. واليوم أنا لا أشبه أياً من ذلك، لا أؤمن بقوميّة أهلي ولا بدياناتهم. لا أؤمن بشيء على الإطلاق. كثيرٌ من الأسئلة تدور في رأسي وتصيبني بالصداع.

أفكّرُ بالوطن وبالمنفى وما يدور في فلك هاتين الكلمتين، فتتقافز صور القتل والموت أمامي. مَن يقتل مَن، لا يهم فكلّه موت. هما قطبان: قاتل ومقتول. والحدث هو الغياب عن هذا العالم. يقول محمود درويش: "لكن ثمّة من يقول: من حق القاتل أن يدافع عن غريزة القتل، أما القتلى فيقولون متأخرين: من حقّ الضحية أن تدافع عن حقّها في الصراخ".

هما وجهتا نظر، قد يقول قائل. ولكن كيف تنسبُ البندقيةُ كلمةَ الرأي إلى نفسها؟ أ يعقل أن يكون للموت صوت؟ وإن كان لها فلمَ لا تنطق إلا بالدم؟ جنون هذا الذي يخالجني. أنظرُ إلى الضحية فأعجب. قابيل قتل أخاه. منذ بداية الخلق، أخٌ يقتل أخاه. كيف؟ وما الدافع؟ أو الأجدى بي أن أسأل: بماذا يشعر القاتل حين يقتل القتيل؟ لا فرق في التسميات بين القتيل والشهيد والضحية، فالموت موت، لا يتجزأ ولا يختلف إلا باختلاف الطريق إليه. وهو، أي الموت، لا يتعلق بالطريق المسلوك في الحياة، ولا بالبدايات، هو النهاية، نهاية حياة أحدهم. إنّها نهاية.

هل أورثَ آدم أبناءه غريزة القتل، فامتدَّت لنا، أم أنّه مدَّنا بفكرةٍ تقول بصحة ما أقول، وإن خالفتني سأقتلك حتى إن كنت أخي. بئس الوالد هذا. وهل أورثنا هذا الوالد الخطيئة، أم كانت النزعة

إلى ارتكابها هي الميّزة. وإن لم يكن كلّ هذا، فلماذا قتل الأخ أخاه؟ سؤال آخر بلا جواب.

أفكر بالقاتل من جديد، وليس بالقتيل. فالقاتل هو الضحية. ليس ضحية الموت، بل ضحية شيء آخر لا أعرفه. كيف طاوعته أصابعه الضغط على الزناد حين رأى صرخة أمامه. هو مجرد صوت، فهل تقتل الصوت بالصوت؟ تقتل صوت الحياة بصوت الموت؟ ها أنا ذا أعود إلى سؤال قديم: هل للموت صوت؟ وعندما يهّم القاتل بالقتل، هل ينظر إلى عينيّ من يقتله، أم ينظر إلى خياله، فيقتل الخيال؟

هنا كما هناك، لا تختلف التسميات: فالقاتل هو المجرم نفسه، القناص، قابض الروح. لا فرق في الاسم، طالما القتل يحصل. القتل يحصل، ويحصد أثناء حصوله أرواحًا، لم يتسنَ لها الوقت كي تنظر مرة أخيرة إلى أرواح أخرى.

هل أبحث هنا عن دافع ليدافع به القاتل عن قتله للمقتول؟ أم أبحث عن دافع ليدافع به المقتول عن حقه في ألا يقتله القاتل؟ أحاصر نفسي بالأسئلة.

أجلس الآن على ضفة النهر في برلين، بجانبي كتابٌ كنت أقرؤه منذ قليل ودراجتي مستندة إلى الكرسي الذي أجلس عليه. هناك اثنان يقبلان بعضهما في الجهة الأخرى من النهر. يمرُّ من أمامي

رجل وكلبه يركض حوله. نظرَ إليّ الرجل، التقت أعيننا، ابتسم، ابتسمت، عبرني وأكمل طريقه. الغراب ينعق والشمسُ آيلةٌ للغروب. أقول لنفسي بشفقة غبية: كم أنا متعب!

أنا الآن في البيت. أفكر أن أنام قليلًا. تمرُّ بي أوقات أخاف أن أنام فيها لفترة طويلة. مصائب كثيرة حدثت أثناء نومي. استشهد بعض الأصدقاء وأنا نائم، اعتُقِلَ آخرون وأنا نائم، أُعلِنَت خلافة البغدادي وأنا نائم، حبيبتي السابقة هجرتني برسالة إلكترونيّة أرسلتها وأنا نائم. حين أكون مستيقظًا وتحصل المصيبة لا أفاجأ. لا بأس إن حصل شيء أراه بعيني. لا أحب المفاجآت. حين أستيقظ من النوم وأرى المصيبة أخاف.

لكن في الناحية المقابلة أخاف اليقظة، وخاصة في الصباح. أحيانًا لا أحتمل الصباح بعيدًا عن دمشق.

أتذكرُ الموتى مرة أخرى. آه على بؤسنا. أتذكرُ المجازر والقتلى. أفكرُ أنّه لا بدّ لشخصٍ ما أن يخبر القتلة بألّا يتركوا أثرًا بعدهم، فليأتوا على كلّ شيء. فليخبرهم بأن يقتلعوا الأشجار من أماكنها ويهدموا البيوت ويقتلوا الحيوانات. فليخبرهم أحدٌ ألّا يتركوا طفلة تنجو من مديتهم، فليذبحوها. فليقتلوا العائلة كاملة ولا يتركوا منها نفرًا يموت كلّ يوم في ذكرى البقية ممن رحلوا.

أفكر بالحريّة التي أفرضها على نفسي وعلى عملي. تعجبني جملة تجمع كلمة حريّة وكلمة فرض مع بعضهما. على كلّ حال، أحاول فرض الحريّة على نفسي وإن لم أستطع بشكل كامل فأحاول فرض ذلك على عملي. أحاول من خلال عملي أن أتحرر من قيود هويتي ومن كلّ ما يقيّد الأفكار، والكتابة... آه من الكتابة. الكتابة هي طريقتي في التعبير عن ذاتي وطريقتي المثلى في التواصل مع هذا العالم. هي طريقة عظيمة لتفريغ الألم والعجز الذي أعاني منه. ولأنّني أعيش في "المنفى" وأكتب عن "الوطن" فالكتابة هي طريقة التفاعل الوحيدة مع هذا الوطن. هكذا أشعر بأنّني أعيش هناك وأقابل الناس في الشوارع. أحبّ أن أسميّها الكتابة المنجيّة.

إنّني أكتب من أجل أن أبقى حيًّا. وأكتب بحريّة من أجل أن يبقى ما أؤمن به حيًّا.

الحريّة... الحريّة... لا تنتهي حريتي عندما تبدأ حريّة الآخرين، حريتي لا تنتهي أبداً، على الأقل حينما أكتب.

كثيرًا ما يراودني هذا السؤال، أقف أمام المرآة قبل أن أقرر البدء وأسأل نفسي، وبعد أن أنتهي أكرر السؤال بصوت مسموع: لماذا أكتب؟ لماذا أنشر ما أكتب؟

أصاب غالبًا بحالات صداع بعد أن أنتهي من كتابة نص ما، بغض النظر عن نوع النص الذي أكتب، أحاول الاستلقاء والنوم أو مشاهدة بعض مقاطع الفيديو التي لا معنى لها، أو أن ألعب لعبة لا تحتاج إلى تفكير، حينها تقفز إلى ذهني أسئلة كثيرة من نوع: ما الذي يجبرني على الكتابة؟ لماذا أنشر ولمن؟ من يهتم بقراءة هذه النصوص؟ ما الذي أحاول تغييره في هذا العالم وأنا الذي لا أؤمن بالتغيير على المدى الطويل؟ والسؤال الأصل: هل حقًا أستطيع أن أضيف شيئًا ما إلى هذا العالم بما أكتب، كقيمة مضافة أو كنوع من التسلية؟

ألجأ إلى الكتابة كلما شعرت بألم في الذاكرة أو بوجع في القلب لا يزول. أهرب إلى هذا المكان وكأنّني أهرب من طلقة قناص لا يترك قطة في الشارع إلا ويصيبها. أهرب من العالم الخبيث وأجتر ذاكرتي بحثًا عن لحظات تُكتَب كي لا تموت.

أكتبُ كي أحسَّ بنفسي. كي أشعر بـ "من أنا"؛ فحين أكتب، وبالكتابة وحدها، يصيبني هذا الشعور الغريب الذي لا يوصف بالكلمات. في كلّ مرة أكتب فيها أشعر بأنّني أرى نفسي في المرآة للمرة الأولى، وأكتشف ملامحي الغريبة عني. في كلّ مرة أكتب أشعر بأنّني حيّ. أحسّ حين أمسك القلم أو ألمس الأحرف على لوحة الكومبيوتر بأنّني ألمس وجهي، أكتشف وجهي. حين الكتابة،

وفقط حين الكتابة، أستطيع أن أعرف أين موقع أنفي وما هو لون عيوني.

أكتب لنفسي، لا لأحد. هناك الآلاف من الكتّاب ومئات الآلاف من الكتب والجرائد والمجلات والمواقع، يمكن للقارئ أن يقرأها، أكتبُ لأعرف نفسي.

الكتابة اكتشاف، وكلّ كتابة جديدة هي اكتشاف جديد لمن يكتب، والقارئ له مهام أخرى لا علاقة لها بما يحسّ به من يكتب حين يكتب.

يقول ميشيل فوكو في مدخل كتابه "حفريات المعرفة": لا تسألوني من أنا ولا تأمروني بأن أظل أنا هو باستمرار: فتلك أخلاق الحالة المدنيّة؛ وهي أخلاق تحكم أوراقنا وبطاقاتنا الإداريّة، كبطاقة الهوية. اتركونا وشأننا أحرارًا، حينما يتعلق الأمر بالكتابة.

المحتويات

مقدمة	٧
دال لام ياء راء	٩
أشخاص	١٣
سلطانة	١٧
الملّا محمد	٢١
نوّار	٢٦
الجدّة نورا	٣٣
آمال الراعي	٣٧
أم كلثوم	٤١
رسائل	٥١
إلى سلطانة	٥٣
رسالة حب أولى	٥٧
رسالة أولى إلى رامي	٥٩
رسالة ثانية إلى رامي	٦٢
رسالة حب ثانية	٦٦
إلى سليم بركات	٦٩

إلى شخصيتي الروائيّة المفضلة ٧٤
أماكن ٧٩
حول المدفأة ٨١
السرفيس ٨٧
الكرنك ٩١
الهوندايا ٩٧
الحارة ١٠١
رسم الطحين ١٠٤
سوق القرماني ١٠٩
نادي الجهاد ١١٥
شارع بيتي البرليني ١١٨
آلبروغ ١٢٣
مرآة الكون ١٣١
المحتويات ١٥٢